نفسِي نفسِي

طريق إنقاذ النفس
قبل يوم القيامة

- توحيد
- صلاة
- توبة
- مجاهدة
- دعاء

تأليف:

أبي عبد الرحمن

خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

١٤٤٧ هـ - 2026 هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده سبحانه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن أعظم ما يُخاطَب به الإنسان في هذه الحياة، وأخطر ما يُدعى إلى التفكر فيه، ليس شأن دنياه الذي ينقضي، ولا تفاصيل معيشته التي تتبدل، وإنما شأنه مع نفسه، تلك النفس التي يحملها بين جنبيه، وتسير معه في كل لحظة، وترافقه إلى القبر، ثم تقف معه بين يدي الله وحده لا شريك له.

ولذلك كان عنوان هذا الكتاب: **"نفسي نفسي"**

وهو عنوان مأخوذ من أعظم موقف يمر بالخلق يوم القيامة، حين تدنو الشمس من الرؤوس، ويشتد الهول، ويقف الناس في مقام طويل لا يعلم شدته إلا الله، فتتعلق القلوب بكل من يُرجى منه الفرج، ويبحث الخلق عن شافعٍ عند ربهم، فيأتون إلى صفوة الله من خلقه: آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام، فيقول كل واحد منهم في ذلك الموقف العظيم: نفسي نفسي.

إنها كلمة ليست عابرة، ولا موقفًا عاطفيًا.

بل هي إعلان الحقيقة الكبرى التي تنكشف هناك:

أن كل إنسان في ذلك اليوم مشغول بنفسه، لا يحمل عنه غيره، ولا يغني عنه أحد، ولا ينفعه إلا ما قدمه هو بنفسه.

وهذا المعنى الذي يظهر في ذلك المشهد العظيم، لم يذكره الشرع لمجرد التخويف، وإنما ليكون ميزانًا تُقاس به الحياة كلها قبل أن يأتي ذلك اليوم؛ فكما أن الناس هناك يقولون: "نفسي نفسي" ، فإن العاقل في الدنيا هو من يجعل مشروعه الأكبر: كيف أنجو بنفسي قبل أن أصل إلى ذلك الموقف؟

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تأمل هذا المعنى تأملاً عميقًا، لا على وجه الوعظ العابر، بل على وجه البناء الإيماني والتربوي.

لأن الإنسان قد ينشغل بكل شيء، ويهتم بكل أحد، ويجمع لكل شيء، ثم يفاجأ أنه لم يعتنِ بأعظم ما يملك: **نفسه التي هي طريقه إلى الجنة أو النار.**

وقد جاء القرآن الكريم والسنة النبوية بتأكيد هذا الأصل العظيم من جهات متعددة؛ فمرة يبين الله حال الناس يوم القيامة حين تنشغل كل نفس بنفسها، ومرة يأمر العبد أن ينقذ نفسه في الدنيا قبل أن يأتي ذلك اليوم، ومرة يبين أن أعظم الخسارة هي خسارة النفس، وأن أعظم الفوز هو نجاتها.

فكل هذه النصوص تدور حول حقيقة واحدة: أن الإنسان مسؤول عن نفسه أولًا وأخيرًا، وأن مصيره مرتبط بما قدمه هو، لا بما قدمه غيره له.

فهي نصوص ترسم طريقين لا ثالث لهما:

- طريق النجاة للنفس.
- وطريق الهلاك للنفس.

وتبين أن القضية الكبرى التي ينبغي أن تشغل العبد هي: **أين ستكون نفسي غدًا؟**

ومن هنا جاء هذا الكتاب ليكون وقفة صادقة مع النفس، بعيدًا عن الغفلة، وقريبًا من الحقيقة، يجمع بين بيان المشهد الأخروي المهيب، وشرح توجيهات الوحي في إنقاذ النفس، ثم الانتقال إلى الطريق العملي الذي به ينجو العبد بنفسه في دنياه وأخراه.

وليس المقصود من هذا الكتاب مجرد المعرفة النظرية، بل المقصود أن يتحول إلى وعيٍ دائمٍ ومحاسبةٍ مستمرةٍ وسلوكٍ عملي، حتى يعيش القارئ مع نفسه في كل يوم سائلاً لها:

- ماذا قدمتِ؟
- وإلى أين تسيرين؟
- وهل أنتِ من الناجين أم من الهالكين؟

نسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل نافعًا، خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا وإياكم نفوسًا زكية، وقلوبًا طاهرة، وأعمالًا صالحة، وأن ينجينا وإياكم من النار، وأن يجعلنا من الفائزين يوم لقائه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول:

حقيقة النفس

إذا كان هذا الكتاب يدور حول كلمة واحدة تتردد في مشهد القيامة العظيم: ((نفسي نفسي))، فإن أول ما ينبغي أن يُعرف هو:

ما هذه النفس التي سيتعلق بها مصير الإنسان كله؟

وما حقيقتها التي لأجلها يُبعث الناس، ويحاسبون، ويثابون أو يعاقبون؟

إن الحديث عن النجاة لا يستقيم حتى تُعرف النفس أولًا، لأن الإنسان قد ينشغل بالدنيا كلها وينسى أعظم ما يملك: نفسه التي بين جنبيه.

ولهذا فإن الله تعالى يوجّه الخطاب في القرآن إلى النفس مرارًا، ويجعل صلاحها وفسادها محور الفلاح والخسران، فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس:٩-١٠].

فهذه الآية تلخص القضية كلها: فلاح النفس أو خيبتها.

أولًا: ما هي النفس؟

قبل الحديث عن نجاة النفس أو هلاكها، يحسن أن نتعرف على النفس التي جعلها الله محور التكليف والثواب والعقاب.

والنفس في القرآن والسنة: تُطلق على معانٍ متعددة بحسب السياق، لكن المقصود بها هنا: ذات الإنسان وحقيقته الباطنة التي بها يعقل ويختار ويؤمن ويكفر ويطيع ويعصي.

ولهذا نسب الله إليها الأعمال والاختيارات، فقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [سورة المدثر:٣٨].

وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١١١﴾ [سورة النحل:١١١]. فهي محل الإرادة والتكليف، وعليها يدور الثواب والعقاب.

وقد تكلم العلماء في العلاقة بين النفس والروح، وذكروا أن بينهما ارتباطًا وثيقًا، وأن النفس قد تُطلق ويراد بها الروح، وقد تُطلق ويراد بها الإنسان كله، وقد تُطلق ويراد بها القوى الباطنة من الشهوات والإرادات والأخلاق.

وليس المقصود في هذا الكتاب الخوض في التفاصيل الكلامية والفلسفية المتعلقة بحقيقة الروح والنفس، وإنما المقصود الجانب الذي اعتنى به القرآن:

وهو أن هذه النفس أمانة أودعها الله في العبد، وجعل صلاحها سبب فلاحه، وفسادها سبب هلاكه.

ولهذا كان التركيز على إصلاح النفس أكثر من التركيز على تعريفها؛ لأن العبرة ليست بمعرفة ماهيتها المجردة، وإنما بمعرفة الطريق الذي يزكيها أو يدسيها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس:٩-١٠].

فكأن الخطاب الموجه للإنسان:

قبل أن تسأل ما هي النفس؟

اسأل: كيف تنجو هذه النفس؟

وكيف تلقى الله بنفسٍ مطمئنة راضية مرضية؟

ومن هنا كانت قضية النفس أعظم قضية في حياة الإنسان كلها؛ لأنها هي التي ستبقى معه حين يفارق المال والأهل والولد، وهي التي ستقف وحدها بين يدي الله يوم القيامة، وهي التي سيُقال لها في نهاية المطاف: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [سورة الفجر:٢٧-٢٨].

أو يُقال لها - والعياذ بالله - ما يقال لأهل الخسران والهلاك.

ثانيًا: النفس هي محل التكليف والابتلاء

فقد خلق الله الإنسان وجعل فيه نفسًا عاقلة مريدة، بها يعرف ربه، ويختار طريقه، ويسلك سبيله إلى الجنة أو النار. وهذه النفس ليست معصومة من الخطأ، ولا مجبولة على الشر المحض، بل جعل الله فيها قابلية

للهدى والضلال، والخير والشر، فقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس:٧-٨].

فهي نفس واحدة، لكن أمامها طريقان:

- طريق التزكية والطاعة والنجاة.
- وطريق التدسية والهوى والهلاك.

ومن هنا تبدأ معركة الإنسان الحقيقية في الدنيا.

ثالثًا: النفس بطبعها تميل إلى الهوى

فقد بيّن الله في كتابه أن النفس إذا تُركت بلا تهذيب قادت صاحبها إلى المعصية والغفلة، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة يوسف:٥٣].

فالنفس تحب الراحة، وتميل إلى الشهوة، وتكره التكليف، ولهذا كانت مجاهدتها أصلاً من أصول السير إلى الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [سورة النازعات:٤٠-٤١].

فتأمل كيف جعل الله الجنة ثمرةً لنهي النفس عن هواها.

رابعًا: أعظم ما يملكه الإنسان هو نفسه

كثير من الناس يظنون أن أعظم ما يملكونه أموالهم أو أولادهم أو مناصبهم، لكن القرآن يقرر أن أعظم ما يملكه الإنسان هو نفسه؛ لأنها هي التي ستبقى معه يوم القيامة، أما كل ما سواها فسيتركه وراءه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [سورة الأنعام:٩٤]. وقال سبحانه: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم:٩٥]. فكل ما في الدنيا سيفارقك، إلا نفسك وعملك.

خامسًا: النفس هي محور النجاة والهلاك

ولهذا جاءت الآيات في كتاب ربنا لتقرر أن أعظم الخسارة ليست خسارة المال ولا الجاه، بل خسارة النفس نفسها، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [سورة الزمر:١٥].

وفي المقابل كان أعظم الفوز نجاة النفس من النار ودخولها الجنة قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٥].

فالقضية الكبرى إذن ليست: **ماذا جمعت؟**

بل: **هل نجت نفسك أم هلكت؟**

ومشهد ((نفسي نفسي)) يوم القيامة ليس حادثة عابرة، بل هو كشف للحقيقة التي كان ينبغي أن يعيشها الإنسان في الدنيا: أن أعظم ما ينبغي أن يهتم به هو إصلاح نفسه وإنقاذها.

فمن عرف حقيقة نفسه، وضعفها، وتقلبها، وخطرها، أدرك حاجته إلى ما تنجو به نفسه.

ومن جهل نفسه، عاش مشتتًا بين شؤون الدنيا، حتى يفاجأ بيوم لا ينفع فيه إلا نفسٌ زكاها صاحبها بالإيمان والطاعة.

📖 خلاصة الفصل:

يتبين من هذا الفصل أن النفس هي القضية المركزية في حياة الإنسان، وأنها محل التكليف والابتلاء، وأنها بطبعها تميل إلى الهوى وتحتاج إلى تزكية ومجاهدة، وأن أعظم الفوز نجاتها، وأعظم الخسارة هلاكها.

ومن هنا يبدأ هذا الكتاب رحلته:

لا للحديث عن أحداث القيامة مجردة، بل للحديث عن إنقاذ النفس قبل أن يأتي اليوم الذي ينشغل فيه كل إنسان بنفسه، ويقول: «**نفسي نفسي**».

الفصل الثاني

يوم يقول الأنبياء: نفسي نفسي

إن أول ما يفتتح به هذا الكتاب هو الوقوف مع أصلِه الذي بُني عليه، وهو أعظم مشهدٍ أخبر به النبي ﷺ عن يوم القيامة، وأشدُّ موقفٍ يمر بالخلق منذ أن خُلقوا إلى أن يلقوا ربهم، ذلكم هو موقف الشفاعة العظمى.

وهو موقف لا يشبه أي موقف في الدنيا، إذ تتكشف فيه الحقائق على وجهها الكامل، وتُرفع فيه الحجب، وتُمحى فيه مظاهر القوة التي اعتادها الناس.

فلا نسب،

ولا سلطان،

ولا شفاعة إلا بإذن الله،

ولا ينطق أحد إلا بما أذن له الرحمن.

في ذلك اليوم العظيم، حين تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويشتد الكرب حتى يبلغ الغم ما لا يطيقه بشر، يقف الناس في صعيد واحد، حفاةً عراةً غرلاً، كما بدأهم الله أول مرة، لا يملكون لأنفسهم شيئًا، ولا يجدون ملجأً إلا إلى ربهم.

ويطول الموقف حتى يبحث الناس عن مخرج، وعن شفيع، وعن كلمة فرج.

فدعونا نعيش هذا المشهد كما وصفه النبي ﷺ في سنته.

روى البخاري ومسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ**

فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ».

قف قليلًا أيها الأخ الكريم...

وأغمض عينيك عن الدنيا لحظات...

ثم سر بقلبك إلى ذلك اليوم الذي وصفه النبي ﷺ.

يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد.

يوم خرج آدم وآخر مولود من البشر، واجتمع الأنبياء والملوك والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، والعرب والعجم، والجن والإنس.

مليارات الخلائق واقفون في أرض واحدة.

لا قصور.

لا مناصب.

لا حراس.

لا جيوش.

لا أموال.

لا نفوذ.

كل ما كان يميز الناس في الدنيا قد سقط وانتهى، ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة الأنعام:٩٤].

ثم تدنو الشمس من الرؤوس.

ويبلغ الكرب مبلغًا لم يبلغه الخيال.

ويغرق الناس في العرق.

ويطول الانتظار.

وتشتد الحسرة.

وتضيق الأنفاس.

عندها لا يطلب الناسُ جنةً، ولا نعيمًا، ولا درجاتٍ عالية.

بل يطلبون شيئًا واحدًا فقط:

أن يبدأ الحساب.

أن ينتهي هذا الموقف الرهيب.

أي شيء خيرٌ من هذا الانتظار.

فيبحثون عن أعظم الخلق.

عن الأنبياء.

عن صفوة البشرية.

عن أولي العزم من الرسل.

فيأتون آدم عليه السلام.

أبا البشر.

الذي خلقه الله بيده.

وأسجد له ملائكته.

ونفخ فيه من روحه.

وعلمه الأسماء كلها.

فإذا بآدم يقول: نفسي نفسي نفسي.

ثم يأتون نوحًا.

شيخ المرسلين، الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

فإذا به يقول: نفسي نفسي نفسي.

ثم يأتون إبراهيم خليل الرحمن.

إمام الحنفاء، الذي جعله الله أمة وحده.

فإذا به يقول: نفسي نفسي نفسي.

ثم يأتون موسى.

أكثر الرسل تابعًا بعد نبينا ﷺ.

من كلمه الله تكليمًا.

ومن اصطفاه الله برسالته وكلامه.

فإذا به يقول: نفسي نفسي نفسي.

ثم يأتون عيسى.

ذلك النبي الكريم المبارك.

رسول الله،

وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وروح منه.

من كلم الناس في المهد وكهلاً.

من يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله.

ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.

فإذا به يقول: نفسي نفسي نفسي.

يا الله...

أي يوم هذا؟

أي كرب هذا؟

أي هول هذا؟

إذا كان الأنبياء الذين اصطفاهم الله، وطهرهم، ورفع ذكرهم، وأكرمهم بالرسالة، يقولون في ذلك الموقف: نفسي نفسي.

فماذا سيقول أهل الذنوب؟

وماذا سيقول أهل الغفلة؟

وماذا سيقول المفرطون؟

وماذا سيقول الذين أضاعوا أعمارهم فيما لا ينفع؟

إن الأنبياء لا يقولون ذلك لأنهم يشُكُّون في رحمة الله.

ولا لأنهم لا يعرفون منزلتهم عند ربهم.

ولكن لأنهم يشاهدون من جلال الله وعظمته وغضبه في ذلك اليوم ما يملأ القلوب رهبةً وخشيةً وإجلالًا.

ولهذا كان أول ما يذكره كل نبي: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**».

كأن الحديث كله يريد أن يغرس في قلبك حقيقة واحدة:

أن القضية الكبرى يوم القيامة ليست الدنيا وما فيها، وإنما: هل تنجو أنت أم لا؟

هناك تتساقط كل القضايا الأخرى.

وتصغر كل الاهتمامات الأخرى.

ويذوب كل ما كان يشغل الناس في الدنيا.

لا تجارة.

لا وظيفة.

لا شهادات.

لا عقارات.

لا أسهم.

لا شهرة.

لا متابعون.

لا مدح الناس.

لا ذم الناس.

كل ذلك انتهى.

وبقيت نفس واحدة فقط: هي نفسُك.

ولهذا لم يقل آدم: أبنائي أبنائي.

ولم يقل نوح: قومي قومي.

ولم يقل إبراهيم: أهلي أهلي.

بل يقول الجميع: نفسي نفسي.

إنها اللحظة التي تنكشف فيها الحقيقة الكبرى:

أن أعظم مشروع في حياتك كلها هو إنقاذ هذه النفس.

وأن كل ما سوى ذلك تابع له.

بل إن العجيب أن القرآن كله يدور حول هذا المعنى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [سورة التحريم:٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [سورة المائدة:١٠٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [سورة الحشر:١٨].

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [سورة النحل:١١١].

﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [سورة المدثر:٣٨].

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [سورة الزمر:١٥].

كأن الوحي كله يناديك:

انتبه لنفسك...

فإن اليوم الذي سيقول فيه الأنبياء: نفسي نفسي قادم لا محالة.

والعاقل من جعل همَّه اليوم ما سيكون همَّه غدًا.

والفقيه من اشتغل بإنقاذ نفسه قبل أن يأتي يوم لا يملك فيه إلا أن يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [سورة الفجر:٢٤].

ومن أعجب ما يستوقف القلب في هذا الحديث العظيم:

تكرار الأنبياء لهذه الكلمة ثلاث مرات: "نفسي نفسي نفسي" .

فلم يقل أحدهم: نفسي؛ بل كررها ثلاثًا.

وهذا التكرار في لغة العرب لا يكون عبثًا، وإنما يُراد به تأكيد المعنى، وإظهار شدة الاهتمام به، وبيان استغراق القلب فيه.

وكأنك ترى النبي الكريم في ذلك الموقف وقد استولى عليه هول المشهد، فلا يجد على لسانه إلا هذه الكلمة التي ملأت قلبه وفكره وشعوره: **نفسي... نفسي... نفسي.**

لقد استغرقت النفس كل اهتمامه في ذلك المقام.

فلا يلتفت إلى شيء سواها.

ولا يفكر في شيء غيرها.

ولا ينطق إلا بما يدل على أعظم همٍّ يشغله في تلك اللحظات.

وهنا موضع التأمل العجيب:

إذا كان هذا شأن آدم أبي البشر، ونوح أول الرسل إلى أهل الأرض، وإبراهيم خليل الرحمن، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله وكلمته، فكيف سيكون حال غيرهم؟

إذا كانت قلوب الأنبياء قد امتلأت في ذلك الموقف بهذا الهم العظيم حتى تكرر على ألسنتهم.

فكيف بقلوب أثقلتها الذنوب،

وأرهقتها الغفلات،

وأحاطت بها التقصيرات؟

بل إن هذا التكرار كأنه رسالة عملية إلى أهل الدنيا:

أنتم اليوم تكررون أشياء كثيرة.

تكررون التفكير في الأموال.

وفي الوظائف.

وفي التجارة.

وفي المناصب.

وفي المساكن.

وفي مستقبل الأولاد.

وفي كلام الناس.

لكن سيأتي يوم تنقطع فيه تلك الهموم كلها، ولا يبقى في القلب إلا هم واحد يتكرر كما تكرر على ألسنة الأنبياء: هم النفس.

وهذا من أعظم الدروس التي يعلمنا إياها حديث الشفاعة.

فإن الإنسان إذا علم أن الهمَّ الذي سيملأ قلبه يوم القيامة هو نجاته الشخصية،

كان من العقل أن يجعل هذا الهم حاضرًا في حياته اليوم.

فالعاقل من عمل اليوم لما يشغله غدًا.

فالأنبياء بذلك القول: لا يعلموننا مجرد خبر عن يوم القيامة، بل يعلموننا ترتيب الأولويات في الدنيا.

فإذا كان أعظم همٍّ لك يوم القيامة هو نفسك، فاجعل أعظم همٍّ لك في الدنيا إصلاح هذه النفس.

وإذا كان أول سؤال ستسأله هناك: **هل نجوت أم هلكت؟**

فاجعل أول مشروع في حياتك هنا: **كيف أنجو بنفسي؟**

ولعل السر في تكرارها ثلاثًا أن السامع لا يمر عليها مرورًا عابرًا، بل تتردد في أذنه، وتقرع قلبه، وتوقظه من غفلته: نفسي نفسي نفسي.

كأنها ناقوس إنذار يتردد عبر القرون كلها، ينادي كل غافل، وكل مفرط، وكل مشغول بالدنيا:

انتبه...

فإن اليوم الذي ستنسى فيه كل شيء إلا نفسك آتٍ لا محالة.

وحينئذ لن يكون السؤال: ماذا ملكت؟

ولا ماذا جمعت؟

ولا ماذا بنيت؟

ولا ماذا حققت؟

وإنما سيكون السؤال كله:

ماذا صنعت لنفسك؟

وماذا قدمت لنفسك؟

وهل نجوت بنفسك؟.

وهناك تنكشف حقيقة واحدة؛ أن كل أحد -مهما علا قدره في الدنيا أو ارتفع مقامه عند الله- لا يملك إلا أن ينشغل بنفسه في ذلك الوقت العصيب.

وهذا التكرار من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل دلالة واضحة على أمور عظيمة:

أولها: أن ذلك اليوم ليس يوم المجاملات ولا العلاقات، بل يوم الحقيقة المطلقة، حيث لا يُذكر إلا ما ينفع الإنسان به نفسه بين يدي الله.

ثانيها: أن أشرف الخلق وأعظمهم قدرًا عند الله، لا يتقدمون بين يدي ربهم إلا خائفين من أنفسهم، مشفقين على مصيرهم، منشغلين بخلاصهم.

ثالثها: أن النفس هي القضية الكبرى التي تُختزل فيها كل قضايا الإنسان، فليست النجاة نجاة مال، ولا جاه، ولا ولد، وإنما نجاة النفس أو هلاكها.

ومن هنا يُفهم أن هذا الحديث ليس مجرد خبر عن المستقبل، بل هو ميزان تربوي للحياة كلها؛ إذ ينقل الإنسان من الانشغال بالغير إلى الانشغال بنفسه، ومن الغفلة عن المصير إلى الاستعداد له.

فإذا كان يوم القيامة هو يوم "نفسي نفسي" ، فإن العاقل من أهل الإيمان يجعل دنياه كلها طريقًا إلى جوابٍ مختلف، فيقول في دنياه: يا رب، نفسي نفسي، فاهدها واغفر لها وثبتها ونجها.

من هنا تواصل هذه الرحلة سيرها؛ رحلة فهم النفس، وخطرها، وسبيل إنقاذها، حتى لا تكون كلمة "نفسي نفسي" يوم القيامة هي لحظة الندم، بل تكون في الدنيا بداية طريق النجاة.

الفصل الثالث:

القرآن يرسم مشهد الانشغال بالنفس

فإذا كان حديث الشفاعة قد رسم لنا صورةً جامعةً لمشهد "نفسي نفسي" عند الخلق في ذلك اليوم العظيم، فإن القرآن الكريم يأتي بعد ذلك ليُفصِّل هذا المشهد تفصيلاً دقيقًا، فيكشف أبعاده، ويبرز ملامحه، ويُقرِّبه إلى القلب حتى كأنه يُرى رأي العين.

فالقرآن لا يذكر الآخرة على سبيل الإخبار المجرد، وإنما يصفها وصفًا يُحدث في القلب يقظةً، ويُقيم في النفس ميزانًا جديدًا للحياة كلها.

ومن أعظم ما يكرره القرآن في هذا السياق: أن ذلك اليوم هو يوم انشغال كل نفس بنفسها، وانقطاع الأسباب، وسقوط كل ما كان الناس يعتمدون عليه في الدنيا.

أولًا: كل نفس تجادل عن نفسها

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة النحل: ١١١].

ما أعظمها من آية!

وما أوجزها من كلمات!

وما أشد ما تحمله من المعاني التي تزلزل القلوب وتوقظ الغافلين!

إن الله سبحانه ينقلنا بهذه الآية إلى ذلك اليوم العظيم، يوم تنكشف الحقائق، وتسقط الأوهام، وتظهر السرائر، وتُطوى صفحات الدنيا كلها.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾.

كل نفس.

لم يستثن الله أحدًا.

لا ملكًا ولا مملوكًا.

ولا رئيسًا ولا مرؤوسًا.

ولا غنيًا ولا فقيرًا.

ولا عالمًا ولا جاهلاً.

ولا صالحًا ولا طالحًا.

كل نفس ستأتي.

وستقف.

وستُسأل.

وستُحاسب.

﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾.

وهنا موضع العبرة.

لم يقل: تجادل عن ولدها.

ولا عن زوجها.

ولا عن عشيرتها.

ولا عن قومها.

ولا عن حزبها.

ولا عن تجارتها.

ولا عن دنياها.

وإنما قال: ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾.

فكل هموم الدنيا التي كانت تستحوذ على الإنسان ستتلاشى في لحظة واحدة.

وسيصبح الهم الأكبر والأوحد:

كيف أنجو بنفسي؟

كيف أعبر الصراط؟

كيف أسلم من النار؟

كيف أفوز برضوان الله؟

هناك تنكشف الحقيقة التي كان القرآن يكررها في مواضع كثيرة:

- أن النفس هي القضية الكبرى.
- وأن النجاة الحقيقية هي نجاتها.

ولهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقولون في حديث الشفاعة: **نفسي نفسي نفسي.**

فكأن الحديث يفسر الآية، وكأن الآية تشرح الحديث.

فالأنبياء يقولون: **نفسي نفسي.**

والقرآن يقول: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾

إنه المعنى نفسه.

إنه يوم تنشغل فيه كل نفس بنفسها.

ويذهل فيه الإنسان عن أقرب الناس إليه.

ثم تأمل ختام الآية: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾

لم يقل: ما تمنَّت.

ولا ما ادعت.

ولا ما انتسبت إليه.

بل: ﴿مَّا عَمِلَتْ ﴾.

فالذي ينفع هناك هو العمل.

والذي يثقل الميزان هو العمل.

والذي يرفع الدرجات هو العمل.

أما الأماني والدعاوى فلا وزن لها يوم القيامة.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

فلا ينقص من حسنات أحد شيء.

ولا يحمل أحد ذنب غيره.

ولا يزاد في سيئات أحد بغير حق.

بل عدل كامل.

وحساب دقيق.

وجزاء مطابق للعمل.

ولهذا فإن العاقل إذا قرأ هذه الآية لم يقف عند وصف يوم القيامة فحسب، بل سأل نفسه:

إذا كان ذلك اليوم يوم المجادلة عن النفس، فماذا أعددت لنفسي؟

وإذا كانت كل نفس ستوفى ما عملت، فما الذي أعددته لذلك الوفاء؟

وإذا كان كل أحد سينشغل بنفسه، فهل انشغلت أنا اليوم بإصلاح نفسي قبل أن يأتي ذلك اليوم؟

إن هذه الآية نداءٌ رباني متكرر لكل مؤمن:

- انتبه لنفسك.
- وأصلح نفسك.
- وزكِّ نفسك.
- وأنقذ نفسك.

فإن اليوم الذي ستجادل فيه عن نفسك بين يدي الله قادم لا محالة.

ثانيًا: لكل امرئ في ذلك اليوم شأن يغنيه

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة عبس: ٣٢-٣٧].

ما أعظمها من آيات!

وما أشد وقعها على القلوب!

إنها تنقل الإنسان في لحظات معدودة من عالم الدنيا الذي امتلأ بالعلائق والروابط والعواطف، إلى عالم الآخرة حيث تنكشف الحقائق، ويظهر المصير، ويصبح الهم الأكبر هو النجاة بالنفس.

فبدأ المشهد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾.

والصاخة هي الصيحة العظيمة التي تصخ الأسماع من شدتها، وتقرع القلوب بهولها، وتزلزل الخلائق كلها.

جاءت معرفة بالألف واللام، وكأنها الصيحة التي لا تشبهها صيحة، والحادثة التي لا يشبهها حادث.

فبمجرد مجيئها تتغير الموازين كلها.

وتنقلب الاهتمامات كلها.

وتسقط القضايا كلها.

ثم تأمل ما الذي ذكره الله بعدها مباشرة.

لم يذكر الجبال وهي تتطاير.

ولا البحار وهي تسجر.

ولا السماء وهي تنشق.

وإن كانت هذه كلها من أهوال القيامة.

وإنما ذكر شيئًا أقرب إلى قلب الإنسان وأشد تأثيرًا عليه.

ذكر العلاقات التي عاش عمره كله متعلقًا بها.

فقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾.

الأخ الذي كان يسنده.

ويأنس به.

ويستقوي به.

ويحتمي به.

يفر منه.

لا لأنه يبغضه.

ولكن لأن نفسه أصبحت أهم عنده من كل أحد.

ثم يرتقي المشهد إلى ما هو أعظم.

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾.

الأم التي حملته ضعفًا على ضعف.

وسهرت من أجله الليالي.

وبذلت له من الحب ما لا يبذله أحد.

والأب الذي تعب وربى وأنفق.

يفر منهما.

لا لعقوق.

ولا لقسوة.

ولكن لأن الموقف فوق الاحتمال.

ولأن الكرب أعظم من أن يسمح له بالالتفات إلى غير نفسه.

ثم يرتقي الأمر أكثر.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾.

زوجته التي كانت أقرب الناس إليه.

وشريكة عمره.

ورفيقة حياته.

يفر منها.

ثم: ﴿وَبَنِيهِ﴾.

فلذات كبده.

وقرة عينه.

وثمرة حياته.

الذين كان يفديهم بنفسه في الدنيا.

أما اليوم فإنه يفر منهم.

يا الله!

أي هول هذا؟

وأي كرب هذا؟

وأي مصيبة هذه التي تجعل الإنسان يفر من أحب الناس إليه؟

إنه ليس فرار كراهية.

ولا فرار عداوة.

وإنما هو فرار الانشغال الكامل بالنفس.

ولهذا جاء التعليل الإلهي الجامع: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾.

أي لكل إنسان قضيةٌ تشغله عن غيره.

وهمٌّ يستولي على قلبه.

وأمرٌ يملأ فكره.

فلا يبقى فيه متسع لأحد.

إنه مشغول بنفسه.

بصحيفته.

بحسابه.

بميزانه.

بمصيره.

بالصراط الذي أمامه.

بالجنة أو النار التي تنتظره.

إنه المعنى نفسه الذي ظهر في حديث الشفاعة.

حين كان آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام يقولون: نفسي نفسي نفسي.

وهنا ينبغي أن يقف العاقل مع نفسه وقفة طويلة.

إذا كان ذلك اليوم آتيًا لا محالة.

وإذا كان الهم الذي سيملأ قلبك يوم القيامة هو نفسك.

وإذا كان أقرب الناس إليك لن تستطيع الالتفات إليهم من شدة انشغالك بمصيرك.

فلماذا لا تجعل لنفسك من الاهتمام اليوم بقدر ما سيكون لها من الاهتمام غدًا؟

لماذا ننشغل بإصلاح الدنيا كلها، ونغفل عن إصلاح النفس؟

ولماذا نهتم بمستقبل الناس، ونقصر في مستقبلنا الأبدي؟

فإن اليوم الذي ستفر فيه من أخيك وأمك وأبيك وصاحبتك وبنيك قادم لا محالة.

وحينها لن يكون السؤال:

ماذا جمعت؟

ولا ماذا ملكت؟

ولا ماذا حققت؟

وإنما سيكون السؤال:

هل نجت نفسك؟

أم خسرتها؟

ثالثًا: الافتداء بالأقربين

إذا كان الإنسان يوم القيامة يفر من أقرب الناس إليه، فإن القرآن يصور لنا مشهدًا أشد هولًا وأعظم أثرًا في النفوس.

إنه ليس مجرد الفرار من الأقربين، بل تمني افتدائهم بالنفس لينجو هو من عذاب الله.

قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المعارج: ١٠-١٤].

تأمل كيف يرتقي القرآن في تصوير شدة الكرب.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

والحميم هو الصديق القريب، والحبيب الملازم، الذي كان في الدنيا يفرح لفرحك ويحزن لحزنك.

أما في ذلك اليوم فلا يسأل عنك، ولا تسأل عنه.

ليس لأن المحبة زالت.

ولكن لأن الأهوال طغت على كل شيء.

ثم قال سبحانه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

أي يرى بعضهم بعضًا.

فهم ليسوا غائبين.

وليست المشكلة أنهم لا يجدون أقاربهم.

بل يرونهم بأعينهم.

ويعرفونهم حق المعرفة.

يرون الآباء والأمهات.

والزوجات والأولاد.

والإخوة والأحباب.

ولكن مع ذلك لا يسأل أحد عن أحد.

لأن كل قلب قد امتلأ بهمِّ نفسه.

ثم يأتي المشهد الذي يكاد يخلع القلوب: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾.

أي يتمنى ويشتهي بكل ما أوتي من رغبة.

ماذا يتمنى؟

﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾.

بأبنائه الذين كانوا أحب الناس إليه.

الذين كان يسهر من أجلهم.

ويتعب من أجلهم.

ويجمع الأموال من أجلهم.

ويتألم لأدنى ألم يصيبهم.

أما اليوم فيتمنى أن يقدمهم فداءً لنفسه.

ثم لا يقف الأمر عند الأبناء.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾.

زوجته التي كانت شريكة عمره.

وأخوه الذي كان عضده وسنده.

ثم يتوسع المشهد أكثر: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾.

أي عشيرته وقبيلته وأهله الذين كانوا يحتمون بهم في الدنيا.

ثم لا يقف الأمر عند ذلك كله.

بل يبلغ الكرب غايته.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.

أي لو أمكنه أن يفتدي نفسه بجميع أهل الأرض لفعل.

لو قيل له: ادفع البشرية كلها لتنجو أنت.

لتمنى ذلك.

لا لظلمه.

ولا لقسوته.

ولكن لأن العذاب الذي يراه أعظم من أن يوصف.

ولأن الخوف الذي يعيشه قد استولى على قلبه كله.

يا الله!

أين الأبناء الذين كان يعيش لهم؟

وأين الزوجة التي كان يؤثرها؟

وأين الإخوة والأقارب والعشيرة؟

لقد ذابت تلك العلائق كلها أمام الحقيقة الكبرى: حقيقة النجاة بالنفس.

فإذا كان الإنسان يوم القيامة مستعدًا أن يبذل أبناءه وزوجته وعشيرته بل أهل الأرض جميعًا لينجو من عذاب الله، فكيف يرضى اليوم أن يضيع نفسه لأجل مال أو شهوة أو منصب أو متاع زائل؟

إن هذه الآيات من أعظم ما يوقظ القلوب من غفلتها.

وتنادي كل مؤمن:

أنقذ نفسك قبل أن يأتي يوم تتمنى فيه أن تفتديها بكل ما في الأرض فلا يقبل منك فداء.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [سورة الرعد:١٨].

رابعًا: لا يحمل أحد عن أحد شيئًا

من أعظم الحقائق التي ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في القرآن:

أن كل نفس مسؤولة عن نفسها،

وأن أحدًا لا يستطيع أن يحمل عن أحد شيئًا من أوزاره،

مهما بلغت المحبة،

أو عظمت القرابة،

أو اشتدت الرابطة بينهما.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ [سورة فاطر:١٨].

إنها آية تهدم آخر ما قد يتعلق به الإنسان من آمال يوم القيامة.

فقد يتوهم الإنسان أن أباه سيعينه.

أو أن ابنه سيحمل عنه.

أو أن أخاه سيخفف عنه.

أو أن صديقه سيشاركه شيئًا من أعبائه.

لكن هذه الآية تقطع هذه الأوهام كلها بكلمات قليلة حاسمة.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾.

أي نفس أثقلتها الذنوب والخطايا.

وأرهقتها الأوزار والسيئات.

وأصبحت عاجزة عن حمل ما عليها.

﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾.

أي تدعو غيرها ليحمل جزءًا من أوزارها.

وتستغيث بمن حولها.

وتطلب العون والمساعدة.

كما كان الناس يتعاونون في الدنيا على حمل الأثقال.

لكن ماذا تكون النتيجة؟

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

شيء نكرة في سياق النفي.

أي لا يحمل قليلاً ولا كثيرًا.

ولا ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا.

ولا جزءًا من جزء.

فكل إنسان سيبقى مع عمله وحده.

ومع حسابه وحده.

ومع مصيره وحده.

ثم يزداد هذا المعنى قوة وتأثيرًا بقوله سبحانه:

﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾.

ولو كان أقرب الناس إليه.

ولو كان أباه.

أو أمه.

أو ابنه.

أو أخاه.

أو زوجته.

فإن القرابة التي كانت سببًا للتعاون والتناصر في الدنيا لا تنفع شيئًا في ذلك اليوم.

لأن كل إنسان قد استغرقه هم نفسه.

فهذه الآية تكرر هذا المعنى من وجوه متعددة حتى يستقر في القلب:

- أن النجاة مسؤولية شخصية.
- وأن الحساب فردي.
- وأن المصير فردي.
- وأن الإنسان سيقف بين يدي الله وحده.

ومن هنا نفهم سر تكرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقولهم: **نفسي نفسي نفسي.**

فهم يعلمون أن أحدًا لا يحمل عن أحد شيئًا.

وأن كل نفس مطالبة بالوقوف بين يدي ربها.

وأن النجاة ليست بالانتساب، ولا بالقرابة، ولا بالعلاقات.

بل بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله سبحانه.

وهنا ينبغي أن يسأل العاقل نفسه:

إذا كان أبي لن يحمل عني شيئًا.

وأمي لن تحمل عني شيئًا.

وابني لن يحمل عني شيئًا.

وزوجتي لن تحمل عني شيئًا.

وصديقي لن يحمل عني شيئًا.

فلماذا أؤخر العمل الذي ينفعني؟

ولماذا أضيع النجاة التي أنا مسئول عنها بعد توفيق الله؟

قال الله في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلاَ يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**». رواه مسلم عن أبي ذر

فهذه الآية من أعظم الآيات التي تدعو العبد إلى تحمل مسؤوليته أمام الله.

وإلى الكف عن الاتكال على غيره.

وإلى المبادرة بإنقاذ نفسه قبل أن يأتي يوم لا يجد فيه من يحمل عنه ذنبًا واحدًا، ولا سيئة واحدة، ولا خطيئة واحدة.

فطوبى لمن فهم هذه الحقيقة في الدنيا، فاشتغل بإصلاح نفسه، وتخفيف أوزارها، والإكثار من حسناتها، قبل أن يأتي اليوم الذي يقال فيه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الصافات:٢٤].

خامسًا: كل نفس بما كسبت رهينة

قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة المدثر:٣٨].

في هذه الآية ينتقل المعنى من مجرد الانشغال إلى الارتباط الكامل بالعمل؛

فالنفس ليست حرة في ذلك اليوم، بل هي مرهونة بما قدمته.

آية قصيرة في ألفاظها، عظيمة في معانيها، كأنها تلخص رحلة الإنسان كلها من أول عمره إلى آخره.

ثلاث كلمات فقط.

لكنها تهدم أوهامًا كثيرة، وتوقظ قلوبًا غافلة، وتضع الإنسان أمام الحقيقة التي لا مهرب منها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.

نفس النبي.

ونفس المِلِك.

ونفس العالم.

ونفس الغني.

ونفس الفقير.

ونفس الرجل.

ونفس المرأة.

لم يستثن الله أحدًا.

فكل إنسان داخل تحت هذا الحكم.

وكل إنسان معنيٌّ بهذه الآية.

وكل إنسان سيقف يوم القيامة ليواجه نتيجتها.

ثم تأمل قوله: ﴿بِمَاكَسَبَتْ﴾.

أي بسبب أعمالها.

بما قدمته.

بما جمعته من حسنات أو سيئات.

بما زرعته في أيام عمرها.

فليس الجزاء يوم القيامة مبنيًا على الأماني.

ولا الانتساب.

ولا الدعاوى.

ولا الشهرة.

ولا المظاهر.

وإنما على الكسب الحقيقي.

على ما كسبته الجوارح.

وما نطق به اللسان.

وما اعتقده القلب.

وما سعت إليه الأقدام.

وما بطشت به الأيدي.

ولهذا كان السلف يخافون من هذه الكلمة: ﴿بِمَاكَسَبَتْ﴾.

لأنها ترد الأمر كله إلى العمل.

والإنسان قد يخدع الناس، وقد يخدع نفسه.

لكنه لا يستطيع أن يخدع الله.

ثم تأتي الكلمة التي تهز القلوب: ﴿رَهِينَةٌ﴾.

والرهين هو المحبوس الممسك المربوط بشيء.

فكأن الله يخبر أن كل نفس مرتهنة بعملها، مأسورة بكسبها، محبوسة بما قدمت.

فإن كان الذي قدمته طاعةً وإيمانًا وإخلاصًا، أطلقت من أسرها إلى رحمة الله ورضوانه.

وإن كان الذي قدمته كفرًا أو نفاقًا أو معاصي أوبقتها، بقيت رهينة بجريرتها حتى تلقى جزاءها.

يا لها من كلمة مخيفة!

إنها تخبرك أن عملك ليس شيئًا خارجًا عنك.

بل هو القيد الذي يقودك.

وهو المركب الذي يحملك.

وهو المصير الذي ستلقاه.

ولهذا لم يقل الله: كل نفس محاسبة. ولا قال: مجزية.

بل قال: ﴿رَهِينَةٌ﴾.

إشارة إلى شدة تعلق الجزاء بالعمل.

حتى كأن النفس قد أُوثقت وربطت بما صنعت.

وهنا يتجلى معنى "نفسي نفسي" في أوضح صوره.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوم القيامة يقولون: نفسي نفسي نفسي.

والله عز وجل يقول في كتابه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾

لأن كل نفس تعلم أن مصيرها مرتبط بما قدمت.

وأنها ستواجه عملها بنفسها.

وأن أحدًا لن يحمل عنها شيئًا.

فهي نفس واحدة.

وعمل واحد.

وحساب واحد.

ومصير واحد.

ومن تأمل هذه الآية علم أن أكبر مشكلة في حياة الإنسان: ليست قلة المال.

ولا ضعف الجاه.

ولا فقد المنصب.

وإنما أن يكون رهينًا بذنوبه.

أسيرًا لشهواته.

محبوسًا بمعاصيه.

فأي خسارة أعظم من نفس رهنتها الخطايا؟

وأي فوز أعظم من نفس أطلقها الله من أسر الذنوب إلى جنات النعيم؟

ولهذا كان أعظم ما يشتغل به العاقل في الدنيا أن يفك هذا الرهن قبل أن يلقى الله.

فإن النفس إذا خرجت من الدنيا وهي مرتهنة للذنوب كانت على خطر عظيم.

أما إذا خرجت وقد فك الله رهنها بالإيمان والتقوى، فقد فازت الفوز كله.

ولذلك فإن هذه الآية ليست خبرًا عن يوم القيامة فحسب.

بل هي رسالة عاجلة لكل إنسان حي:

انظر اليوم في رهن نفسك.

- بماذا ارتهنت؟
- وبأي شيء قُيدت؟
- وما الذي ستلقى الله به؟

فإن كل نفس غدًا ستعلم حقيقة هذه الآية حين ترى صحيفتها، وتواجه عملها، وتدرك أن الله سبحانه قد صدق: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾

خلاصة هذا الفصل:

إن هذه الآيات مجتمعة لا تصف مشاهد متفرقة من يوم القيامة، بل تخبر عن شيء واحد، وتدور كلها حول حقيقة واحدة: أن النفس هي القضية الكبرى في ذلك اليوم.

فكل نفس مشغولة بنفسها.

وكل نفس مجادلة عن نفسها.

وكل نفس مرهونة بعملها.

وكل نفس منفردة بحسابها.

وكل نفس لا يغني عنها قريب، ولا يحمل عنها حبيب، ولا ينفعها إلا ما قدمته بين يدي ربها.

وهذا كله تفسير قرآني بديع لكلمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حديث الشفاعة: نفسي نفسي نفسي.

فمن تدبر هذه المشاهد علم أن الدنيا ليست دار قرار، وإنما هي دار إعداد لنفس ستقف وحدها بين يدي الله، لا يرافقها مال، ولا ولد، ولا جاه، ولا سلطان، وإنما يرافقها عملها.

ومن فهم هذا المشهد أحسن الاستعداد لذلك اليوم، وجعل أعظم همِّه نجاة نفسه.

ومن غفل عنه عاش للدنيا، حتى يفاجئه يوم كان القرآن يصفه له آيةً آية، ومشهدًا مشهدًا.

الفصل الرابع:

أعظم الخسارة خسارة النفس

بعد أن تبين لنا في الفصول السابقة حقيقة النفس، وميدان صراعها، وقابلية صلاحها وفسادها، وارتباط ذلك كله بمشهد "نفسي نفسي" يوم القيامة، ننتقل في هذا الفصل إلى حقيقةٍ من أخطر الحقائق التي قررها القرآن، وهي:

أن أعظم خسارة يمكن أن يصاب بها الإنسان ليست خسارة مالٍ ولا دنيا، بل خسارة النفس نفسها.

وهذه الحقيقة ليست مجرد وعظٍ عابر، بل هي ميزان قرآني حاسم يقلب موازين الناس التي اعتادوها في الدنيا.

أولًا: الخسران الحقيقي هو خسارة النفس

يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الزمر: ١٥].

هذه الآية من أعظم الآيات التي تعيد ترتيب موازين الربح والخسارة في حياة الإنسان.

فإن الناس في الدنيا يختلفون في معنى الخسارة؛

فمنهم من يرى الخسارة في ذهاب المال،

ومنهم من يراها في فقد المنصب،

ومنهم من يراها في ضياع التجارة أو فوات المكاسب أو الحرمان من بعض ملذات الحياة.

أما القرآن فينقل الإنسان من هذه المقاييس المحدودة إلى المقياس الحقيقي الذي تُوزن به الأمور كلها، ويقرر أن الخسارة العظمى ليست خسارة شيء خارج عن الإنسان، وإنما خسارة الإنسان نفسه.

ولهذا لم يقل سبحانه: خسروا أموالهم، أو خسروا ديارهم، أو خسروا تجارتهم، وإنما قال:

﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

أي أضاعوا أعظم ما يملكون.

وأهلكوا أغلى ما أُعطوا.

وفرطوا في الأمانة التي خُلقوا من أجل حفظها وإنقاذها.

فكل ما يملكه الإنسان في الدنيا يمكن أن يعوض إذا فُقد.

فالمال قد يذهب ثم يعود.

والتجارة قد تخسر ثم تربح.

والمنصب قد يزول ثم يُسترجع.

والصحة قد تضعف ثم تتحسن.

أما النفس إذا خسرت يوم القيامة فلا سبيل إلى تعويضها، ولا طريق إلى استدراك ما فات منها.

إنها خسارة أبدية لا نهاية لها.

ولهذا وصف الله هذا الخسران بقوله:

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي الخسران الظاهر البيِّن الذي لا يخفى على أحد، والخسران الكامل الذي لا خسارة بعده.

قال بعض أهل العلم: كل مصيبة دون النار فهي هينة، وكل خسارة دون خسارة الدين والنفس فهي يسيرة.

وتأمل كيف جمع الله بين خسارة النفس وخسارة الأهل، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

لأنهم حُرموا من أنفسهم،

وحُرموا من أهليهم الذين كانوا يرجون الاجتماع بهم في النعيم المقيم.

فاجتمع عليهم ألم هلاك النفس،

وألم فراق الأهل،

وألم الحرمان من نعيم الله.

وهذا يدل على أن أعظم ما ينبغي أن يخافه الإنسان ليس الفقر، ولا المرض، ولا فقد الجاه، وإنما أن يلقى الله وقد خسر نفسه.

ومن هنا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أشد الناس خوفًا على أنفسهم، مع علو منزلتهم عند الله، لأنهم يعلمون أن القضية الكبرى يوم القيامة ليست كم ملك الإنسان من الدنيا، وإنما بماذا لقي الله، وكيف كانت حال نفسه عند لقاء ربها.

قال سبحانه عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

ولهذا فإن العاقل لا يقيس نجاحه بما جمع من حطام الدنيا، وإنما يقيسه بمقدار ما حفظ نفسه من أسباب الهلاك، ومقدار ما قرَّبها إلى الله عز وجل.

فإذا نجا بنفسه فقد ربح كل شيء، وإن خسر نفسه فقد خسر كل شيء، ولو ملك الدنيا بأسرها.

ثانيًا: كيف يخسر الإنسان نفسه؟

إن خسارة النفس لا تقع غالبًا دفعة واحدة، ولا يستيقظ الإنسان فيجد نفسه قد هلكت فجأة،

وإنما هي طريق طويل من الغفلة والتفريط،

يبدأ صغيرًا ثم يكبر،

ويبدأ خفيًّا ثم يظهر، حتى يصل بصاحبه إلى خسارة نفسه وهو لا يشعر.

ولهذا كان من أعظم ما ينبغي أن يتفطن له المؤمن معرفة الطرق التي تهلك النفس، والمسالك التي توردها موارد الخسران.

فإن النفس تُخسر بالغفلة.

وتُخسر بالإعراض عن الله.

وتُخسر باتباع الهوى.

وتُخسر بالإصرار على الذنب.

وتُخسر حين يقدم العبد شهوته على أمر ربه، وعاجل دنياه على نعيم آخرته.

وقد جمع الله أصل هذه القضية كلها في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سورة الحشر: ١٩].

وهذه الآية من أبلغ الآيات في بيان طريق الهلاك.

فإن بداية الخسارة ليست نسيان النفس، وإنما نسيان الله.

وذلك بتركهم أداء حقِّ الله الذي أوجبه عليهم.

فالإنسان إذا غفل عن ربه،

وأعرض عن ذكره، وضعفت صلته به،

عوقب بعقوبة من جنس عمله، فأنساه الله نفسه.

وما أعظمها من عقوبة!

إن الإنسان قد ينسى مالًا فيعثر عليه.

وقد ينسى متاعًا فيستدركه.

أما أن ينسى نفسه، فذلك هو الخسران الحقيقي.

ومعنى: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي أنساهم ما يصلحها وينجيها.

أنساهم عيوبها وآفاتها.

أنساهم حاجتها إلى التوبة.

أنساهم الاستعداد للقاء الله.

أنساهم الغاية التي خلقوا من أجلها.

فأصبحوا يعيشون للدنيا وحدها، ويتحركون لشهواتها، ويقيسون النجاح والفشل بمعاييرها.

فتراهم يهتمون بكل شيء إلا أنفسهم.

ويهتمون بمستقبلهم الدنيوي أكثر من مصيرهم الأبدي.

ويهتمون بأجسادهم أكثر من قلوبهم.

ويهتمون بعمارة دنياهم أكثر من عمارة آخرتهم.

وهنا تبدأ **رحلة الخسارة الحقيقية**.

إن الذنب الواحد إذا لم يتب منه العبد جرَّ إلى ذنب آخر.

والغفلة الصغيرة تجر إلى غفلة أكبر.

والشهوة إذا استجاب لها صاحبها مرة سهلت عليه المرة الثانية.

حتى يعتاد القلب المعصية، وتألف النفس الغفلة،

ويصبح الرجوع إلى الله أثقل عليها من البقاء على الذنب.

ولهذا كان السلف يخافون من الذنوب الصغيرة أكثر مما يخاف كثير من الناس من الكبائر؛ لأنهم يعلمون أن الجبال إنما تتكون من الحصى، وأن الهلاك العظيم يبدأ بخطوات يسيرة لا ينتبه لها صاحبها.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ**». أي من الْمُهْلِكَاتِ. رواه البخاري

ومن أعظم أسباب خسارة النفس اتباع الهوى.

فالهوى يعِدُ صاحبه باللذة، ثم يورده الحسرة.

ويزين له المعصية، ثم يتركه يواجه عواقبها.

ويصغِّر له الذنب حتى يوقعه فيه، ثم يكبره في عينه إذا أراد التوبة منه.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة ص:٢٦].

وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الفرقان:٤٣].

لأن صاحب الهوى لا يقوده الدليل، وإنما تقوده الرغبة،

ولا يحكمه الشرع، وإنما تحكمه الشهوة.

ومن أخطر صور خسارة النفس أن يبيع الإنسان آخرته بدنياه.

فيعلم الحق ثم يتركه لمصلحة عاجلة.

ويعرف طريق النجاة ثم يعرض عنه لشهوة زائلة.

ويؤثر رضا الخلق على رضا الخالق.

ويختار الفاني على الباقي.

وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [سورة الأعلى:١٦-١٧].

وهكذا تتراكم أسباب الخسارة على القلب شيئًا فشيئًا،

حتى يفجأ الإنسان الموت،

فينتقل من دار العمل إلى دار الجزاء،

ومن زمن التوبة إلى زمن الحسرة،

فيكتشف حينئذ أنه أمضى عمره كله في أمور كثيرة، إلا الأمر الذي خُلق من أجله.

وهنا يدرك معنى الخسران الذي أخبر الله عنه، ولكن بعد أن يغلق باب العمل، وتنتهي فرصة التدارك.

ولهذا كان العاقل من يراجع نفسه قبل أن يحاسب، ويتداركها قبل أن تفلت، ويوقظها قبل أن تستغرق في غفلتها، فإن النفس لا تهلك فجأة، وإنما تهلك حين يطول عليها الأمد، وتستمر في السير إلى غير الله حتى يأتيها الموت وهي على ذلك.

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحديد: ١٦].

ثالثًا: حين يكتشف الخاسر خسارته

من أعظم ما يزيد الخسارة ألمًا، ويضاعف الحسرة على صاحبها، أن يدركها بعد فوات وقت التدارك، وأن يعرف حقيقة ما أضاعه بعد أن يُغلق باب الرجوع.

وهذا هو شأن كثير من الخاسرين يوم القيامة.

ففي الدنيا كانوا غافلين، مشغولين بالشهوات، مطمئنين إلى طول الأمل، يؤجلون التوبة، ويسوفون الإنابة، ويظنون أن أمامهم من العمر متسعًا.

حتى إذا انكشف الغطاء، وظهرت الحقائق، وأبصروا المصير رأي العين، أدركوا حجم ما ضيعوا، ولكن بعد أن انتهت المهلة، وانقضى زمن العمل.

وتأمل هذه الآية التي تُصور مشاهد الحسرة تصويرًا يهز القلوب، ويوقظ الغافلين.

قال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الزمر: ٥٦].

تأمل هذا النداء الموجع: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾.

إنها ليست كلمة ندم عابر، بل صرخة نفس أدركت أنها أضاعت أعظم ما كان ينبغي أن تحافظ عليه.

أدركت أنها فرطت في حق الله.

وفرطت في عمرها.

وفرطت في نفسها.

وفرطت في أيام كان يمكن أن تكون سببًا في نجاتها وسعادتها الأبدية.

ولكنها مرت وانقضت ولن تعود أبدًا.

وقال سبحانه عن أهل النار: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [سورة فاطر:٣٧].

إنهم لا يطلبون مالًا.

ولا يطلبون جاهًا.

ولا يطلبون متاعًا من متاع الدنيا.

كل ما يطلبونه فرصة أخرى.

ساعة واحدة يعودون فيها إلى الدنيا.

يوماً واحداً يزدادون فيه من الطاعات.

ركعةً يتقربون بها إلى الله.

دمعةً يذرفونها من خشية الله.

توبةً يمحون بها ما سلف.

لكن ذلك الطلب يأتي بعد فوات أوانه.

ولهذا يقال لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة فاطر:٣٧].

لقد أُعطيتم الفرصة كاملة.

وأُرسلت إليكم الرسل.

وأُنزلت الكتب.

وقامت عليكم الحجة.

لكنكم ضيعتم أيام المهلة حتى جاء يوم الجزاء.

وقال سبحانه عن المحتضر الذي عاين الحقيقة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [سورة المؤمنون:٩٩-١٠٠].

إنها الأمنية التي تتكرر عند كل مفرط.

ليس التمني بالرجوع للدنيا من أجل جمع الأموال.

ولا من أجل بناء الدور.

ولا من أجل تحصيل الشهوات.

وإنما من أجل عمل صالح واحد يثقل الميزان.

ومن أجل توبة صادقة تنجي النفس.

ومن أجل لحظات قليلة كان يملكها ثم فرط فيها.

ولكن الجواب يأتي حاسمًا: ﴿كَلَّآۚ﴾

كلمة واحدة تقطع كل أمل في الرجوع.

فقد انتهى زمن الزراعة، وجاء زمن الحصاد.

وانقضت دار العمل، وحضرت دار الجزاء.

وهنا تظهر الحقيقة التي كان كثير من الناس يغفلون عنها في الدنيا:

أن أعظم ما يندم عليه الإنسان يوم القيامة ليس ما فاته من الدنيا، وإنما ما فاته من الطاعة.

وليس ما خسره من المال، وإنما ما خسره من نفسه.

وليس على ما فعل من أمور الدنيا، وإنما على ما قصر فيه من حق الله.

فالعجب ممن يبكي على موت غيره، ولا يبكي على نفسه وهي سائرة إلى الموت.

وقد أحسن من قال:

عجبت لمن يبكي على موت غيره دموعاً ولا يبكي على موت قلبه دما

وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره عظيماً وفي عينيه عن عيبه عمى

فإن الخاسر الحقيقي ليس من مات جسده، وإنما من مات قلبه قبل أن يموت بدنه، ثم لقي الله بغير زاد

وما أشد حسرة إنسان أمضى عمره كله يحفظ ماله، ويعتني بتجارته، ويؤمن مستقبله، ثم أهمل نفسه التي لأجلها خُلق، فإذا وقف بين يدي الله علم أنه أضاع أعظم رأس مال كان يملكه.

وهنا يكتمل معنى الخسران المبين.

وعندها يدرك الإنسان حقيقة قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [سورة الزمر: ١٥].

وقوله جلَّ في عُلاه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ [سورة الشورى: ٤٥].

ولكن إدراك ذلك يومئذ لا ينفع، لأن زمن الإدراك النافع كان في الدنيا،

أما يوم القيامة فهو يوم ظهور الحقائق، لا يوم تداركها.

رابعًا: لماذا كانت خسارة النفس أعظم الخسارة؟

إذا تأمل الإنسان أنواع المصائب التي تقع للناس في الدنيا وجد أنها على تفاوت عظيم.

فمن الناس من يُبتلى في ماله، ومنهم من يُبتلى في صحته، ومنهم من يُبتلى في أهله وولده، ومنهم من يفقد منصبًا أو جاهًا أو مكانة بين الناس.

ومع شدة هذه المصائب وآلامها، فإنها كلها تبقى محدودة الأثر، قابلة للتعويض أو التخفيف أو الصبر عليها.

فالمال إذا ضاع أمكن أن يعود.

والتجارة إذا كسدت أمكن أن تنتعش.

والمنصب إذا زال أمكن أن يخلفه غيره.

والمرض قد يذهب أثره بالصبر والاحتساب.

والولد إذا فُقد أمكن أن يكون فرطًا لوالديه عند الله.

أما النفس إذا خسرت يوم القيامة فلا عوض عنها أبدًا.

لأن خسارتها ليست خسارة زمن محدود، ولا خسارة متاع زائل، وإنما خسارة أبدية تمتد بامتداد الآخرة.

ولهذا كان القرآن يوجه الأنظار دائمًا إلى هذا المعنى العظيم، ويجعل قضية النفس فوق كل القضايا.

فالإنسان إذا دخل النار لم ينفعه مال جمعه.

ولم ينقذه جاه سعى إليه.

ولم تدفع عنه عشيرة كان يعتز بها.

ولم تمنحه القرابات فرصة للنجاة.

فكل الأسباب التي كان الإنسان يتقوى بها في الدنيا تنقطع هناك.

ولا يبقى معه إلا عمله.

ولا يبقى له إلا ما قدمه لنفسه.

ولهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وهم صفوة الخلق وأكرمهم على الله - يقولون في ذلك الموقف العظيم: نفسي نفسي نفسي.

ولم يكن ذلك لأنهم يجهلون مقامهم عند الله، ولا لأنهم يشكون في وعد الله لهم، وإنما لأنهم أبصر الناس بعظمة ذلك اليوم، وأعلم الناس بحق الله، وأشدهم معرفة بخطورة الموقف بين يديه سبحانه.

فإذا كان هذا حال الأنبياء والمرسلين، فما حال المذنبين والمقصرين؟

وإذا كان أولئك الأطهار منشغلين بنجاة أنفسهم، فكيف يليق بالمؤمن أن يجعل أعظم همومه الدنيا، وينسى القضية التي ستشغله يوم القيامة كلها؟

ومن تأمل حديث الشفاعة يكتشف أن القضية الكبرى التي تُختزل فيها حياة الإنسان كلها هي قضية واحدة:

ومن تأمل حديث الشفاعة أدرك أن حياة الإنسان الطويلة، بما فيها من آمال وأعمال وصراعات، تنتهي إلى قضية واحدة عظيمة، هي:

هل تنجو النفس أم تهلك؟

فإذا نجت النفس فقد هان ما سواها.

وإذا هلكت النفس فلا قيمة لما سواها.

ولهذا كانت خسارة النفس أعظم الخسارة، وكانت كل خسارة دونها يسيرة مهما عظمت في أعين الناس.

📖 خلاصة الفصل:

يتبين من هذا الفصل أن الميزان الحقيقي للخسارة ليس ما يفقده الإنسان في الدنيا، بل ما يكون عليه مصير نفسه في الآخرة.

فمن خسر نفسه فقد خسر كل شيء، وإن ملك الدنيا كلها، ومن نجا بنفسه فقد ربح كل شيء، وإن فاته كثير من متاع الدنيا.

وهنا يتأكد معنى "نفسي نفسي" : أن القضية الكبرى ليست ما يملكه الإنسان، بل ما تؤول إليه نفسه.

الفصل الخامس:

أعظم الفوز نجاة النفس

إن أعظم فوز يمكن أن يبلغه الإنسان هو أن تنجو نفسه من النار وتفوز برضوان الله.

وهذا من تمام عدل الله وحكمته؛

إذ جعل أعظم ما يُطلب هو أعظم ما يُخشى فقده: النفس ومصيرها.

أولًا: معيار الفوز في القرآن

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨٥].

هذه الآية من أعظم الآيات التي تعيد ترتيب موازين الحياة في قلب المؤمن، لأنها تنقل الإنسان من المقاييس الأرضية المحدودة إلى المقياس الرباني الخالد.

فالناس في الدنيا يختلفون في معنى الفوز:

فمنهم من يراه في المال.

ومنهم من يراه في المنصب.

ومنهم من يراه في الشهرة أو القوة أو كثرة الأتباع.

لكن القرآن يختصر القضية كلها في جملة واحدة: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾.

فهذا هو الفوز الحقيقي الذي لا فوز بعده.

وليس من اللافت في الآية أنها ذكرت دخول الجنة فحسب، بل إنها قدمت قبل ذلك الزحزحة عن النار، فقال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾.

والزحزحة تدل على الإبعاد والتنحية شيئًا فشيئًا، وكأن العبد كان قريبًا من الهلاك، ثم تداركه الله برحمته فأبعده عنه، ونجَّاه منه، ثم أدخله دار النعيم.

وفي هذا إشارة بديعة إلى أن أعظم نعمة ينالها العبد يوم القيامة هي نجاته من العذاب قبل حصوله على النعيم.

فالقضية الأولى يوم القيامة ليست: ماذا ربحت؟

بل: ممَّ نجوت؟

وليست: ماذا ملكت؟

بل: هل سَلِمَت نفسك من الهلاك؟

ولهذا كان أهل الإيمان في الدنيا أشد حرصًا على النجاة من حرصهم على المكاسب؛ لأنهم يعلمون أن الخطر الأعظم ليس فوات شيء من الدنيا، وإنما الوقوع في عذاب الله.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

ليبين أن كثيرًا مما يتنافس عليه الناس من صور الفوز الدنيوي إنما هو متاع مؤقت، يزول بالموت، وينقطع عند القبر، أما الفوز الذي يبقى أثره إلى الأبد فهو نجاة النفس ودخولها الجنة.

ولهذا فإن الإنسان العاقل لا يقيس نجاحه بما جمع من الدنيا، وإنما يقيسه بقدر ما اقترب من النجاة.

فإذا نجا العبد من النار فقد ربح كل شيء.

وإذا خسر نفسه فلا ينفعه بعد ذلك شيء.

ومن هنا كان هذا المعيار القرآني العظيم أساسًا لفهم موضوع هذا الكتاب كله؛ لأن مشروع "إنقاذ النفس" إنما غايته أن يكون صاحبه من هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

ثانيًا: النجاة من النار هي الغاية الكبرى

فإذا كان القرآن قد جعل معيار الفوز الحقيقي هو الزحزحة عن النار ودخول الجنة، فإن هذا يدل على أن أعظم ما ينبغي أن تسعى إليه النفس في هذه الحياة هو النجاة من النار؛ لأنها الهلاك الحقيقي الذي لا هلاك بعده، والخسارة الكبرى التي لا خسارة فوقها.

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤]. دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «**يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ**

مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا».

ولهذا كان خوف النار حاضرًا في دعاء الأنبياء والصالحين، وحاضرًا في مناجاة المؤمنين، لأنهم أدركوا أن القضية الكبرى ليست تحصيل متاع الدنيا، وإنما السلامة من عذاب الله يوم القيامة.

قال الله تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [سورة الفرقان: ٦٤-٦٦].

وقال سبحانه عن أهل الإيمان: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝﴾ [سورة آل عمران: ١٩٢].

وكان من أكثر دعاء المؤمنين الذي علمهم الله إياه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [سورة البقرة: ٢٠١].

فتأمل كيف يتكرر في القرآن معنى الوقاية، والصرف، والزحزحة، والسلامة، والنجاة، وكلها تدور حول مقصد واحد عظيم:

إنقاذ النفس من المصير السيئ قبل فوات الأوان.

ومن هنا نفهم جانبًا عظيمًا من أسرار مشهد الشفاعة يوم القيامة، حين يشتد الكرب بالخلق، ويتتابع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على قولهم: نفسي نفسي.

إنها قضية المصير الأبدي.

ولهذا فإن المؤمن العاقل يحوِّل هذا المشهد الأخروي إلى عمل يومي في حياته، فيقول قبل أن يأتي ذلك اليوم:

يا رب، نفسي نفسي.

يا رب، أخاف عليها من الهلاك.

يا رب، أخاف عليها من النار.

يا رب، نجِّها برحمتك، واهدها لطاعتك، وثبتها على دينك.

وهذا هو المعنى الإيجابي العظيم لمشهد ((نفسي نفسي))؛ فليس المقصود أن ينشغل الإنسان بنفسه عن طاعة الله أو عن نفع الناس، وإنما أن يجعل أعظم همومه نجاة نفسه، وأن يقدم سلامة مصيره على كل ما سواه.

فمن عاش بهذه الروح، كان سعيه كله في الدنيا سعيَ من يريد أن يلقى الله بنفسٍ ناجية، وقلبٍ سليم، وعملٍ مقبول، حتى يكون يوم القيامة من أهل الزحزحة عن النار والفوز بدار القرار.

ثالثًا: حقيقة الفوز الحقيقي

ومن أعظم ما يبين هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى جعل الفوز الحقيقي مقيدًا بالنجاة من النار ودخول الجنة، فقال: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [سورة آل عمران:١٨٥].

فتأمل هذا التعريف الرباني للفوز.

إنه تعريف يختلف تمامًا عن الموازين التي اعتادها الناس في الدنيا.

فالله سبحانه لم يقل: فقد جمع مالًا كثيرًا.

ولم يقل: فقد نال سلطانًا أو جاهًا.

ولم يقل: فقد حقق شهرةً أو منزلةً بين الناس.

بل اختصر الفوز كله في أمر واحد: النجاة من النار ودخول الجنة.

وكأن القرآن يريد أن ينقل الإنسان من عالم الأوهام إلى عالم الحقائق،

ومن المقاييس المؤقتة إلى الموازين الخالدة.

فكل ما يراه الناس فوزًا في الدنيا إنما هو فوز محدود بزمن قصير، ينتهي بالموت، وينقطع عند القبر، ثم يبقى الإنسان بعد ذلك أمام الحقيقة الكبرى: هل نجت نفسه أم هلكت؟

ولهذا كان السلف ينظرون إلى الدنيا كلها على أنها مرحلة عابرة، لا يستحق شيء فيها أن يسمى فوزًا مطلقًا ما لم يكن معينًا على النجاة في الآخرة.

فالفوز الحقيقي ليس فيما يملكه الإنسان، بل فيما يصير إليه.

وليس فيما يجمعه في الدنيا، بل فيما يلقاه عند الله.

ومن هنا كان أعظم الفائزين يوم القيامة هم الذين نجوا بأنفسهم،

وإن كانوا في الدنيا من أقل الناس مالًا أو جاهًا،

لأنهم حققوا الفوز الذي لا يزول،

والنعيم الذي لا ينقطع،

والنجاة التي لا يعقبها خوف ولا حزن.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**». رواه مسلم

فأي فوزٍ أعظم من هذا.

إذ كانت غمسة واحدة في الجنة تنسيك كل شدائد الدنيا وكروبها وغمومها.

رابعًا: مقارنة بين الفوز الحقيقي وفوز الدنيا

الناس منذ خُلقت الدنيا يتنافسون في صور متعددة من الفوز:

- فوز بالمال والثروة.
- وفوز بالمناصب والسلطان.
- وفوز بالشهرة والانتشار.
- وفوز بالمكانة والوجاهة بين الخلق.

ويبذل كثير منهم أعمارهم كلها في سبيل هذه المكاسب، حتى يظنوا أنها الغاية التي خُلقوا لها.

لكن القرآن يعيد تعريف الفوز تعريفًا جذريًا، ويقلب هذه الموازين رأسًا على عقب.

فقد يملك الإنسان الدنيا كلها، ثم يخسر نفسه، فيكون من أعظم الخاسرين.

وقد يعيش فقيرًا مجهولًا بين الناس، ثم ينجو بنفسه عند الله، فيكون من أعظم الفائزين.

فدل ذلك على أن المعيار ليس ما كسبه الإنسان في الدنيا، وإنما ما آل إليه أمره في الآخرة.

إن فوز الدنيا محدود بأيام معدودة.

أما الفوز الذي يتحدث عنه القرآن ففوز أبدي لا ينتهي.

- فوز يرافق صاحبه بعد الموت.
- وفي القبر.
- وعند البعث.
- وعند الحساب.
- وعند المرور على الصراط.
- ثم يمتد معه في جنات النعيم إلى غير نهاية.

ولهذا فإن العاقل لا يجعل أكبر همّه أن يكون فائزًا في أعين الناس، وإنما أن يكون فائزًا عند الله.

ولا يجعل غايته تحصيل ما يفنى، وإنما تحصيل ما يبقى.

ولا ينشغل بما يزيد رصيده في الدنيا أكثر من انشغاله بما ينجي نفسه يوم القيامة.

فالفوز الحقيقي في نهاية المطاف ليس أن تربح شيئًا خارجك، وإنما أن تنجو أنت.

وأن تُزحزح نفسك عن النار.

وأن تُدخل برحمة الله في جنة الرحمن التي أعدها سبحانه لعباده الصالحين.

📖 خلاصة الفصل:

يتبين من هذا الفصل أن أعظم غاية يسعى إليها الإنسان ليست مجرد تحصيل المكاسب، بل إنقاذ النفس من الخسران.

فمن زحزح عن النار فقد فاز، ولو فاته كثير من متاع الدنيا،

ومن لم يزحزح عنها فقد خسر، ولو ملك الدنيا كلها.

فليجعل الإنسان أكبر همه أن تنجو نفسه، وأن يسعى بكل ما يستطيع لتحقيق هذا الهدف العظيم.

الفصل السادس: نداءات القرآن والسنة

أنقذ نفسك

بعد أن تبين في الفصول السابقة أن الإنسان سيقف يوم القيامة منفردًا، وأن أعظم خسارته خسارة نفسه، وأن أعظم فوزه نجاة نفسه، يبقى سؤالٌ هو لبّ هذا الكتاب وروحه: كيف يُنقذ الإنسان نفسه في الدنيا قبل أن يصل إلى موقف "نفسي نفسي" في الآخرة؟

وهنا يأتي القرآن الكريم بمنهج الإنقاذ،

لا ليصف المصير فقط،

بل ليضع طريق النجاة بوضوحٍ كامل،

وكأن الآيات نداءات متكررة من الله لعباده: **أنقذوا أنفسكم** قبل فوات الأوان.

أولًا: الخطاب المباشر للنفس

من أعظم ما يلفت النظر في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى لا يكتفي ببيان الحقائق الكبرى، ولا بمجرد وصف الجنة والنار، بل يوجه نداءه مباشرة إلى الإنسان نفسه.

وكأنه يقول له في كل موطن: انتبه لنفسك، واعتنِ بها، وأنقذها قبل فوات الأوان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [سورة المائدة:١٠٥].

وهذه الآية من أعظم الآيات في باب إصلاح النفس؛ لأنها تجعل الإنسان يبدأ بنفسه قبل كل شيء.

فالمعنى: الزموا إصلاح أنفسكم، واعتنوا بتزكيتها، واحفظوها من أسباب الهلاك، فإنها رأس مالكم الحقيقي، وهي التي ستقفون بها بين يدي الله يوم القيامة.

وليس المقصود أن يترك الإنسان دعوة غيره أو نصحه أو الإحسان إليه،

وإنما المقصود أن **لا** ينشغل بالناس عن نفسه،

ولا يشتغل بعيوب الآخرين وينسى عيوبه،

ولا يحمل همَّ إصلاح العالم كله بينما نفسه تتسرب منها أسباب النجاة.

ولهذا كان من أعظم الغبن أن يعرف الإنسان أخطاء الناس كلها ويجهل أخطاء نفسه.

فالنفس هي أول ميدان للعمل،

وأول موضع للمحاسبة،

وأول ما ينبغي أن ينشغل العبد بإصلاحه.

ومن تأمل القرآن وجد هذا المعنى يتكرر في صور كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ١٤].

فكأن القرآن يعيد الإنسان في كل مرة إلى القضية الكبرى التي قد يغفل عنها: قضية نفسه ومصيرها.

ولهذا فإن أول خطوة في طريق النجاة أن يلتفت الإنسان إلى نفسه التفاتًا صادقًا، فيسأل:

- أين أنا من الله؟
- وماذا أعددت ليوم لقائه؟
- وماذا قدمت لنفسي التي سأقف بها وحدي بين يديه؟

فإذا استقرت هذه المعاني في القلب بدأ مشروع الإنقاذ الحقيقي،

وبدأت النفس تسير في طريق النجاة قبل أن يأتي اليوم الذي لا يشغلها فيه إلا أن تقول: نفسي نفسي.

ثانيًا: أمر صريح بالوقاية من النار:

فمن أوضح نداءات القرآن في باب إنقاذ النفس قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦].

فهذه الآية الكريمة ليست مجرد توجيه عام،

بل هي أمر إلهي مباشر بالوقاية من أعظم خطر يهدد الإنسان، وهو عذاب النار.

وتأمل كيف بدأ الله بالنفس قبل الأهل، فقال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

لأن الإنسان لا يستطيع أن ينقذ غيره وهو غارق،

ولا أن يقود غيره إلى النجاة وهو لم يسلك طريقها.

فكانت البداية من النفس، ثم يمتد أثر النجاة بعد ذلك إلى الأهل والذرية ومن تحت يد الإنسان.

وهذا من أعظم ما يبين أن مسؤولية الإنسان الأولى في هذه الحياة ليست جمع المال، ولا تحصيل الجاه، ولا بناء المكانة بين الناس، وإنما إنقاذ نفسه من النار.

فإذا نجح في هذه المهمة فقد حقق أعظم نجاح، وإذا ضيعها فقد ضيع رأس ماله كله.

ولهذا كان المؤمن الصادق ينظر إلى كل طاعة على أنها خطوة تبعده عن النار،

وينظر إلى كل معصية على أنها خطوة تقربه منها،

فيعيش عمره كله بين خوفٍ يدفعه إلى الحذر، ورجاءٍ يحمله على العمل.

ومن هنا يتبين أن معنى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ ليس شعارًا وعظيًا مجردًا، بل هو أمر رباني صريح، نادى الله به عباده المؤمنين، وجعله من أعظم واجباتهم في هذه الحياة.

ثالثًا: بيان أن العمل للنفس لا لغيرها

فالقرآن يقرر قاعدة عظيمة في باب المسؤولية الفردية وإنقاذ النفس، فيقول سبحانه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت:٤٦].

فهذه الآية ترد الإنسان إلى حقيقة كثيرًا ما يغفل عنها،

وهي أن ثمرة الأعمال كلها راجعة إليه هو، لا إلى غيره.

فكل طاعة يؤديها،

وكل سجدة يسجدها،

وكل دمعة خشية يذرفها،

وكل صدقة يبذلها،

إنما يدخرها لنفسه.

وكل معصية يرتكبها،

وكل تقصير يصر عليه،

وكل غفلة يستسلم لها،

إنما يجني ضررها على نفسه.

ولهذا لم يجعل الله الحساب يوم القيامة جماعيًا،

بل فرديًا،

لأن العمل فردي،

والجزاء فردي،

والمصير فردي.

قال تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [سورة مريم:٩٥]. وقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [سورة المدثر:١١]. وقال:﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة مريم:٨٠]. وقال:﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام:٩٤].

فكل إنسان يبني مصيره بعمله،

ويصنع مستقبله الأبدي بيده،

ويكتب لنفسه النجاة أو الخسارة من خلال ما يختاره في هذه الحياة.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [سورة البلد:٨-١١].

ومن هنا يترسخ معنى ((إنقاذ النفس)) في القلب؛ لأن الإنسان حين يدرك أن كل ما يعمله إنما يعود عليه، وأنه لا يحمل عنه أحد تبعة تقصيره، يصبح أكثر حرصًا على إصلاح نفسه، وأكثر مراقبة لأعماله، وأكثر استعدادًا ليوم الحساب.

فالسعيد من عمل لنفسه قبل أن يُحال بينه وبين العمل،

وجمع لنفسه من الحسنات قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه إلا ما قدمه بين يدي الله.

أما من ضيع نفسه، وأهمل إصلاحها، وأضاع أيامه فيما لا ينفع،

فإنه سيفاجأ يوم القيامة بأن أعظم ما فرط فيه لم يكن مالًا ولا جاهًا، وإنما نفسه التي بين جنبيه.

ولهذا كان كل عمل صالح في حقيقته صورة من صور إنقاذ النفس.

وكل معصية طريقًا من طرق تعريضها للخطر، حتى يلقى العبد ربه على ما قدمت يداه.

📖 خلاصة الفصل:

يتبين من هذا الفصل أن القرآن والسنة لم يتركا الإنسان تائهًا في طريق النجاة، بل وجها إليه نداءات متكررة تدعوه إلى إنقاذ نفسه قبل فوات الأوان.

فأمراه أن يبدأ بنفسه إصلاحًا وتزكيةً، وأن يقيها عذاب النار، وأن يراقب أعماله قبل يوم الحساب، وأن يفر إلى الله من كل ما يبعده عنه، وأن يدرك أن ثمرة عمله إنما تعود عليه وحده.

فالنفس هي ميدان التكليف، وهي محل النجاة أو الهلاك، وكل إنسان مسؤول عنها أمام الله مسؤوليةً لا يحملها عنه أحد.

ومن تدبر هذه النداءات القرآنية علم أن رسالة الإسلام كلها تدور حول غاية عظيمة:

أن يلقى العبد ربه بنفسٍ مؤمنةٍ مزكاة، قد سلكت طريق النجاة قبل أن يأتي اليوم الذي لا يسمع فيه إلا صوت الخلائق وهم يقولون: نفسي نفسي.

الفصل السابع

طريق النجاة... كيف تنقذ نفسك؟

إذا كانت الفصول السابقة قد كشفت لنا حقيقة الموقف الذي ينتظر كل إنسان،

وأرتنا الخلائق يوم القيامة وقد استولى عليها الهم والخوف حتى صار شعارها: نفسي نفسي،

ثم بينت لنا حقيقة النفس التي يدور عليها الحساب،

وأوضحت أن أعظم الخسارة هي خسارة النفس،

فإن السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو:

كيف تنجو هذه النفس؟

وما الطريق الذي يسلكه العبد حتى يكون من الفائزين لا من الخاسرين؟

فإن الله سبحانه لم يخلق الخلق ثم يتركهم هملاً،

ولم يحذرهم من الهلاك دون أن يدلهم على سبيل النجاة،

بل أرسل الرسل،

وأنزل الكتب،

وأقام الحجج،

وفتح أبواب رحمته لعباده،

وجعل طريق النجاة واضحًا لمن أراد أن يسلكه.

وإذا تأملنا القرآن والسنة وجدنا أن أسباب النجاة كثيرة،

وأن أبواب الخير واسعة، رحمةً من الله بعباده،

لكن هناك أصولًا عظيمة تدور عليها النجاة كلها،

وهي بمنزلة الأساسات التي يبنى عليها فلاح العبد في الدنيا والآخرة.

ولهذا سنقف في المباحث القادمة مع خمسة أصول عظيمة هي من أعظم أسباب إنقاذ النفس ونجاتها.

الأساس الأول:

التوحيد أصل النجاة وأساسها

إذا كان ما سبق من الفصول قد قرر أن الإنسان سيقف بين يدي الله فردًا، وأنه لا ينفعه إلا عمله، وأن أعظم خسارته خسارة نفسه، وأعظم فوزه نجاة نفسه، فإن السؤال الذي يتأكد هنا:

ما العمل الأعظم الذي تُبنى عليه هذه النجاة؟

وما الأصل الذي إذا فُقد ضاعت النفس ولو كثرت أعمالها؟

والجواب الذي جاءت به جميع الشرائع، واتفق عليه الأنبياء، وابتدأت به رسالات السماء: هو التوحيد.

فالتوحيد ليس عملاً من الأعمال فحسب،

بل هو أساس الأعمال،

وروح النجاة،

وأول طريق "إنقاذ النفس".

أولًا: التوحيد أول دعوة الرسل

لقد اتفقت دعوة الأنبياء جميعًا على أصل واحد، واختلفت الشرائع في بعض الفروع والتفاصيل، أما هذا الأصل فلم يختلف فيه نبي واحد منذ آدم إلى محمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل:٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].

فأصل الدين كله قائم على توحيد الله سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة، وصرف جميع أنواع الذل والخضوع والمحبة والخوف والرجاء له وحده دون ما سواه.

ولهذا بدأ نوح دعوته بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأعراف:٥٩].

وقال هود لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

وقال صالح لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾.

وقال شعيب لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾.

وختم الله الرسالات كلها برسالة محمد ﷺ التي قامت على الدعوة إلى تحقيق كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" .

وليس ذلك لأن التوحيد عبادة من العبادات فحسب، بل لأنه الأساس الذي تُبنى عليه جميع العبادات.

- فالصلاة لا تنفع بلا توحيد.
- والصيام لا ينفع بلا توحيد.
- والصدقة لا تنفع بلا توحيد.

بل لو جاء العبد يوم القيامة بعبادات تملأ ما بين السماء والأرض، ثم لقي الله مشركًا به، لم تنفعه تلك الأعمال شيئًا.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الزمر:٦٥].

فإذا كان هذا الخطاب موجَّهًا إلى الأنبياء على سبيل التحذير وبيان خطورة الشرك، فكيف بمن دونهم؟

ولهذا كان التوحيد أول ما يدخل به الإنسان في الإسلام، وآخر ما ينبغي أن يخرج به من الدنيا.

روى البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى**».

وفي رواية: «**فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**».

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**». رواه أبو داود حسنه الألباني في الإرواء ٦٨٧

ومن هنا ندرك أن أول خطوة في طريق إنقاذ النفس هي تحقيق التوحيد.

فإن النفس يوم القيامة لن تنجو بكثرة أعمالها إذا فقدت أصل التوحيد، لكنها قد تنجو بالتوحيد ولو قصرت في كثير من الأعمال، إذا لقيت الله موحدة غير مشركة به شيئًا.

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**». رواه الترمذي وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧).

ولهذا كان أعظم حق لله على عباده هو توحيده.

في الصحيحين من حديث مُعَاذٍ رضي الله عنه، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟**»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»

فالتوحيد هو أول النجاة.

وهو مفتاح الجنة.

وهو أعظم الحسنات.

وهو السبب الذي من أجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الخلق.

ومن أراد أن ينقذ نفسه من أعظم الخسارة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، فليبدأ من هنا، من تحقيق كلمة التوحيد علمًا واعتقادًا وعبادةً واستسلامًا لله رب العالمين.

ثانيًا: التوحيد شرط النجاة يوم القيامة

ولذلك كانت النجاة يوم القيامة مرتبطة بالتوحيد ارتباطًا لا ينفك عنه، لأن التوحيد ليس مجرد فضيلة من الفضائل، ولا عبادة من العبادات، بل هو أصل الدين الذي تُبنى عليه جميع الأعمال، والأساس الذي تقوم عليه نجاة النفس أو هلاكها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١١٦].

فهذه الآيات من أوضح ما يكون في بيان أن التوحيد هو الحد الفاصل بين النجاة والهلاك.

فكل ذنب يمكن أن تدركه المغفرة إذا شاء الله.

وكل خطيئة يمكن أن تشملها الرحمة إذا شاء الله.

إلا الشرك إذا مات صاحبه عليه ولم يتب منه، فإنه الذنب الذي أخبر الله أنه لا يغفره.

وذلك لأن الشرك فساد في أصل العلاقة بين العبد وربه، وخلل في أعظم حق من حقوق الله على خلقه.

ولهذا لم يكن خطر الشرك في كونه معصية فحسب،

بل في كونه نقضًا للأساس الذي تُبنى عليه جميع الطاعات.

فكما أن البناء مهما ارتفع لا يثبت إذا انهار أساسه،

كذلك الأعمال مهما كثرت لا تنفع صاحبها إذا فسد أصل التوحيد.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام:٨٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [سورة الزمر:٦٥].

فالصلاة بلا توحيد لا تنفع.

والصيام بلا توحيد لا ينفع.

والصدقة بلا توحيد لا تنفع.

وسائر الأعمال إنما تُقبل إذا قامت على أساس الإيمان الخالص لله سبحانه وتعالى.

ولهذا كان أول ما يُسأل عنه العبد في قبره: من ربك؟

وكان أول ما دعت إليه الرسل أممها: **أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.**

وكان أول واجب على المكلف: **تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.**

وإذا تأملت مشهد القيامة الذي يدور عليه هذا الكتاب، ورأيت الخلائق وهم يقولون: ((نفسي نفسي))، علمت أن أول ما تحتاجه النفس في ذلك اليوم هو توحيد صحيح تلقى به ربها، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء:٨٨-٨٩].

فكم من أناس كانت لهم أعمال عظيمة في أعين الناس، لكنها لم تنفعهم عند الله؛ لأنها لم تقم على أساس الإخلاص والتوحيد.

وكم من أناس لقوا الله بقلوب موحدة مخلصة، فكانت كلمة التوحيد سبب نجاتهم وفوزهم.

ولهذا كان السلف رحمهم الله يخافون على التوحيد أكثر من خوفهم على كثير من الأعمال؛ لأنهم يعلمون أن ضياع الفرع يمكن تداركه، أما ضياع الأصل فهلاك محقق.

ومن هنا ندرك أن أول ما ينبغي أن يعتني به من يريد إنقاذ نفسه هو تصحيح توحيده، وتعلم معناه، وتحقيق مقتضاه، والحذر من كل ما يناقضه أو ينقصه.

فإن النفس لا تنجو يوم القيامة بكثرة ما عملت، وإنما تنجو أولًا بسلامة ما اعتقدت.

وأعظم ما تعتقده أن الله وحده هو المستحق للعبادة، لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

فإذا سلم التوحيد، أمكن أن تنفع الأعمال.

وإذا فُقد التوحيد، ضاعت الأعمال كلها، وكانت النفس من أعظم الخاسرين.

ثالثًا: معنى ((إنقاذ النفس)) يبدأ من التوحيد

إذا قيل للعبد: أنقذ نفسك، فإن أول ما ينبغي أن يتبادر إلى ذهنه ليس كثرة الأعمال، ولا تنوع الطاعات، وإنما تصحيح أصل العلاقة بالله عز وجل.

فإن النجاة لا تُبنى من عباداتٍ متفرقة فوق أساس متصدع، بل لا بد أولًا من إقامة الأساس الذي يحمل البناء كله، وهذا الأساس هو التوحيد.

ولهذا كانت دعوة الأنبياء جميعًا تبدأ بتوحيد الله قبل كل شيء، لأن النفس لا يمكن أن تسير في طريق النجاة حتى تعرف ربها، وتعبده وحده، وتفرده بالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة.

ومن هنا نفهم أن أول خطوة في إنقاذ النفس ليست حركة الجوارح، وإنما تصحيح اعتقاد القلب.

فمن حقق التوحيد فقد وضع قدمه على أول طريق النجاة.

ومن أخلّ بالتوحيد فقد عرّض نفسه لأعظم أسباب الهلاك، ولو ظن أنه يحسن صنعًا.

ولهذا كان التوحيد أول ما يُدعى إليه العبد، وأول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما ينبغي أن يخرج به من الدنيا.

وهو أول الحقوق وأعظمها، وأول أسباب النجاة وأساسها.

وإذا تأملت مشهد القيامة الذي يدور عليه هذا الكتاب، ورأيت الخلائق وقد استولى عليها الخوف والكرب، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقولون: ((نفسي نفسي))، علمت أن أول ما تحتاجه النفس في ذلك اليوم هو توحيد صحيح تلقى به ربها.

فالتوحيد هو الزاد الذي لا يستغني عنه أحد، وهو النور الذي يضيء للعبد طريقه إلى الله، وهو الأصل الذي تُقبل به الأعمال أو تُرد.

ولهذا كانت النجاة الحقيقية تبدأ من هنا، من تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علمًا واعتقادًا وعبادةً وانقيادًا واستسلامًا لله رب العالمين.

رابعًا: التوحيد يحرر النفس من كل عبودية

ومن أعظم آثار التوحيد في إنقاذ النفس أنه يحررها من كل عبودية سوى عبودية الله.

فالنفس بطبعها لا بد أن تتعلق بشيء، فإن لم تتعلق بربها تعلقت بغيره.

قد تتعلق بمال.

وقد تتعلق بجاه.

وقد تتعلق بمنصب.

وقد تتعلق بمدح الناس أو بذمهم.

وقد تتعلق بشهوة أو عادة أو هوى.

فتعيش أسيرة لهذه التعلقات، منقادة لها، تتحرك معها حيث تحركت.

أما الموحد حقًا فإنه يقطع هذه القيود كلها، ويجعل قلبه متعلقًا بالله وحده.

فلا يخاف إلا الله.

ولا يرجو إلا الله.

ولا يتوكل إلا على الله.

ولا يستعين إلا بالله.

ولا يطلب العزة إلا من الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة الأنعام:١٦٢].

وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر:٣٦].

فكلما قوي التوحيد في القلب،

تحررت النفس من رق المخلوقين،

ومن سلطان الشهوات،

ومن أسر الأهواء.

وحينئذٍ تصبح النفس ثابتة عند الفتن،

مطمئنة عند المخاوف،

راضية عند الأقدار،

قوية عند الشدائد.

لأنها تستند إلى ركن لا يزول، وتلوذ برب لا يخذل أولياءه.

ومن أعظم ما يعين على فهم هذا المعنى أن نتذكر يوم القيامة؛ ذلك اليوم الذي تنقطع فيه جميع العلائق، وتسقط فيه جميع الأسباب، ويتبرأ الأحباب بعضهم من بعض، فلا يبقى للعبد إلا ربه.

فمن كان متعلقًا بالله في الدنيا، وجد ثمرة ذلك يوم القيامة.

ومن كان قلبه معلقًا بالمخلوقين، اكتشف يومئذٍ أن كل تلك التعلقات قد تلاشت وانقطعت.

ولهذا كان التوحيد أعظم ما يطمئن النفس في الدنيا، وأعظم ما ينجيها في الآخرة.

ومن كان مع الله في دنياه، كان الله له يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ويوم يقول الخلق جميعًا: ((نفسي نفسي)).

خامسًا: التوحيد أساس قبول العمل

ومن أعظم ما ينبغي أن يستقر في قلب المؤمن أن التوحيد ليس مجرد سبب من أسباب النجاة، بل هو الشرط الذي لا تُقبل الأعمال إلا به.

فقد يكثر الإنسان من الصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، وسائر أعمال البر، لكن هذه الأعمال كلها لا قيمة لها عند الله إذا فقدت أصل التوحيد أو خالطها الشرك الذي يناقض الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

ولهذا كان أول ما يُنظر إليه في العمل قبل كثرته وحجمه: هل أُريد به وجه الله وحده أم أُريد به غيره؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [سورة البينة:٥].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [سورة الكهف:١١٠].

فجمع الله في هذه الآية بين شرطي قبول العمل: الصواب والإخلاص.

وروى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، موافقًا لشرعه.

ولهذا كان السلف يخافون على أعمالهم من فساد التوحيد والإخلاص أكثر من خوفهم من قلة الأعمال؛ لأن العمل قد يكثر، ولكن لا يرفع إلى الله بسبب فساد القصد أو دخول الشرك أو الرياء.

ومن هنا يتبين أن المعيار الحقيقي لإنقاذ النفس ليس مجرد كثرة العمل، وإنما سلامة التوحيد الذي يقوم عليه العمل.

فكم من عمل صغير عظمه الإخلاص فصار سببًا لنجاة صاحبه.

وكم من أعمال كثيرة أحبطها الشرك أو الرياء فلم تنفع أصحابها يوم القيامة.

ولهذا كان أعظم ما يعتني به المؤمن أن يحفظ توحيده، ويراقب قلبه، ويجدد إخلاصه، ويخشى أن يدخل على عمله ما يفسده أو يبطله.

فإن النفس لا تنجو بكثرة الأعمال المجردة، وإنما تنجو بالأعمال التي قامت على توحيد صحيح وإخلاص صادق لله رب العالمين.

📖 الخلاصة:

يتبين من هذا الفصل أن التوحيد هو أصل النجاة كلها، وأساس كل فلاح، وأنه حجر الزاوية في مشروع إنقاذ النفس الذي يدور عليه هذا الكتاب.

فهو أول دعوة الرسل، وأعظم حق لله على عباده، وشرط النجاة يوم القيامة، ومفتاح الجنة، وأساس قبول الأعمال، والسبب الذي تتحرر به النفس من عبودية الخلق إلى عبودية الخالق.

ولهذا لم يكن غريبًا أن يُبدأ به جميع الرسالات، وأن يجعل عليه مدار السعادة والشقاء، والفوز والخسران.

فإذا كان الناس يوم القيامة يقولون: ((نفسي نفسي))، فإن أول ما ينبغي أن يعتني به العبد لإنقاذ تلك النفس هو أن يلقى الله بقلب موحد، خالص لله، بريء من الشرك كله، كبيره وصغيره، ظاهره وخفيه.

فمن جاء يوم القيامة موحدًا لله، معظمًا له، مخلصًا له الدين، فقد وضع قدمه على طريق النجاة.

ومن أضاع التوحيد أو نقضه بالشرك، فقد أضاع أصل النجاة، وخسر أعظم ما يمكن أن يخسره الإنسان.

ولهذا كانت أول وسائل إنقاذ النفس وأعظمها وأجلها: تحقيق التوحيد لله رب العالمين.

الأساس الثاني:

الصلاة عمود النجاة وأول ما يُسأل عنه العبد

بعد أن تبين أن التوحيد هو أصل النجاة وأساسها، فإننا ننتقل إلى أعظم شعائر الإسلام العملية، وأول ما يظهر أثر التوحيد في واقع العبد، وهي: الصلاة.

فالصلاة ليست مجرد عبادة من العبادات، بل هي ميزان الدين، وعنوان الإيمان، وأول ما يُنظر فيه من عمل العبد يوم "نفسي نفسي" .

أولًا: الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد التوحيد

لقد جاءت النصوص الشرعية لتبين عظمة الصلاة ومكانتها، فهي الركن الأعظم بعد الشهادتين، وهي الصلة الدائمة بين العبد وربه، وهي العلامة الظاهرة على صدق الإيمان وحياة القلب.

وعند أحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**رَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**». صححه الألباني في الصحيحة (١١٢٢)

فشبه النبي ﷺ الصلاة بالعمود الذي تقوم عليه الخيمة، فإذا سقط العمود سقط البناء كله.

وكذلك دين العبد؛ فإن الصلاة هي عموده الظاهر، وأعظم شعائره العملية، فإذا حافظ عليها دل ذلك على حياة الإيمان في قلبه، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع.

ولهذا كانت الصلاة العبادة الوحيدة التي فُرضت فوق السماوات السبع ليلة المعراج، دون واسطة بين الله ورسوله ﷺ، تنويهًا بمكانتها، وإظهارًا لعظم شأنها.

روى ابن حبان عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِهَا فِي صدره وما كان يَفِيضُ بِهَا لسانُهُ.: «**الصلاةَ الصلاةَ! اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أيمانُكُمْ**». صححه الألباني في الإرواء (٢١٧٨) .

فكانت الصلاة آخر وصاياه في الدنيا، لأنها من أعظم أسباب النجاة في الآخرة.

ومن تأمل القرآن وجد أن الله جل جلاله يكرر الأمر بالصلاة أكثر من أي عبادة عملية أخرى، ويقرنها بالإيمان والتقوى والفلاح والفوز، مما يدل على أنها ليست عملاً عاديًا في حياة المسلم، بل هي أساس يومي تتجدد به صلته بربه، ويثبت به على طريق النجاة.

ولهذا فإن أول ما يظهر أثر التوحيد في حياة العبد هو الصلاة.

فالتوحيد إيمان القلب، والصلاة أعظم ترجمة عملية لهذا الإيمان.

فمن عرف ربه حق المعرفة عظَّمه، ومن عظَّمه لم يفرط في الوقوف بين يديه.

ومن أحب الله لم يأنف من مناجاته.

ومن خافه لم يضيع حقه.

ومن رجاه لم يقطع صلته به.

ولهذا كانت الصلاة أول عنوان ظاهر على سلامة الطريق إلى الله.

وإذا كان الناس يوم القيامة يقولون: ((نفسي نفسي))، فإن من أعظم ما ينفع النفس في ذلك الموقف هذه الصلوات التي كان العبد يحافظ عليها في الدنيا، ويقف بها بين يدي ربه خاضعًا متذللاً منيبًا.

روى أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاَةَ يَوْمًا فَقَالَ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ**». (١)

فهي ليست مجرد حركات تؤدى، وإنما زاد يدخره العبد لذلك اليوم العظيم، ويوم يجد الناس أعمالهم حاضرة، يجد المصلي أثر سجوده وركوعه وخشوعه محفوظًا عند ربه سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الصلاة أول ما يُسأل عنه العبد

ومن أعظم ما يبين منزلة الصلاة في ميزان النجاة أن الله جعلها أول الأعمال التي يُنظر فيها يوم القيامة.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلاَتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ**». رواه النسائي وصححه الألباني في الترغيب (٥٤٠)

وهذا الحديث من أعظم الأحاديث ارتباطًا بموضوع هذا الكتاب؛ لأنه يكشف للعبد أول محطة من محطات الحساب يوم يقف بين يدي الله وحده.

---

(١) (إسناده حسن) انظر تحقيق المسند طبعة الرسالة عند حديث (٦٥٧٦)

فإذا جاء ذلك اليوم الذي كان الناس فيه يقولون: ((نفسي نفسي))، وكان كل إنسان مشغولًا بخلاصه، فإن أول ما يُفتح من صحائف العمل هو باب الصلاة.

فإن صلحت الصلاة صلح ما بعدها.

وإن قُبلت رُجي لصاحبها الخير فيما سواها.

وإن فسدت كان ذلك نذير خطر على بقية الأعمال.

ولهذا لم يقل النبي ﷺ: أول ما يُنظر فيه الصيام، أو الصدقة، أو الحج، وإنما خص الصلاة بهذا المقام العظيم؛ لأنها أعظم شعائر الإسلام بعد التوحيد.

وكأن الصلاة هي البوابة الأولى التي تَعْبُر منها النفس إلى النجاة.

فإذا اجتازتها بسلام رُجي لها ما بعدها.

وإذا تعثرت عندها كان الخطب أعظم.

ولهذا كان السلف يعظمون شأن الصلاة غاية التعظيم، ويرون أن حفظها حفظ للدين كله، وأن تضييعها مفتاح لتضييع سائر الطاعات.

فحريٌّ بالعبد أن يسأل نفسه دائمًا:

كيف حالي مع الصلاة؟

كيف حالي مع الفرائض الخمس؟

كيف حالي مع الخشوع فيها؟

كيف حالي مع المحافظة عليها في أوقاتها؟

لأن الجواب عن هذه الأسئلة اليوم قد يكون من أعظم أسباب النجاة غدًا.

ثالثًا: الصلاة صلة مباشرة بين العبد وربه

ومن أعظم أسرار الصلاة أنها ليست مجرد عبادة تؤدى، بل هي لقاء متكرر بين العبد وربه.

ففي كل يوم وليلة يقف المؤمن خمس مرات بين يدي مولاه.

يقطع صلته بالدنيا.

ويترك أشغاله وهمومه.

ويتوجه بقلبه ووجهه إلى ربه سبحانه.

يفتتح صلاته بالتكبير معلنًا أن الله أكبر من كل شيء.

ويقرأ الفاتحة التي هي أعظم دعاء للهداية والاستقامة.

ويركع خاضعًا لعظمة ربه.

ويسجد متذللاً بين يديه.

ويكرر في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة:٥-٦].

فهي مدرسة يومية لتجديد الإيمان، وتصحيح المسار، ومراجعة العلاقة بالله.

ولهذا كانت الصلاة من أعظم ما يحفظ النفس من الانحراف والضياع.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت:٤٥].

فكلما صدقت صلاة العبد ازداد قلبه حياة، وازداد بعدًا عن المعصية، وازداد قربًا من ربه.

ومن رحمة الله بعباده أن جعل هذه الصلة تتكرر خمس مرات في اليوم؛ لأن النفس سريعة الغفلة، كثيرة النسيان، تحتاج دائمًا إلى ما يذكرها بربها ومصيرها.

فإذا حافظ العبد على هذه الصلة، عاش في الدنيا متعلقًا بالله، مستعدًا للقائه، مترقبًا لذلك اليوم العظيم.

ومن كان كثير الوقوف بين يدي الله في الدنيا، كان أهون عليه الوقوف بين يديه يوم القيامة.

ومن عمر أوقاته بالصلاة والمناجاة، رُجي له أن يجد أثر ذلك يوم يفزع الناس، ويشتد الكرب، ويقول الخلق جميعًا: ((نفسي نفسي)).

أما هو فيرجو رحمة ربه، وثمرة تلك السجدات التي طالما خضع بها بين يدي مولاه سبحانه وتعالى.

رابعًا: الصلاة ميزان الانضباط الإيماني

فالصلاة ليست مجرد حركات تؤدى، ولا ألفاظ تردد، وإنما هي ميزان دقيق يظهر فيه صدق الإيمان أو ضعفه، وقوة الصلة بالله أو فتورها.

فإن العبد قد يزعم محبة الله، وقد يدعي الحرص على الآخرة، وقد يتحدث عن الإيمان والخوف من الحساب، لكن الصلاة هي المحك العملي الذي تظهر عنده حقيقة هذه الدعوى.

فمن حافظ عليها في أوقاتها، وأقبل عليها بقلبه وجوارحه، دل ذلك على تعظيمه لربه، واستحضاره للدار الآخرة، وحرصه على نجاة نفسه.

ومن تهاون بها، أو أضاعها، أو قدم عليها شهواته وأشغاله، كان ذلك علامة على ضعف صلته بالله، وقلة استعداده للقاء ربه.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [سورة الماعون:٤-٥].

فتأملوا كيف أن الوعيد لم يتوجه إلى تاركي الصلاة فقط،

بل إلى قوم انتسبوا إلى الصلاة،

ولكنهم ضيعوا حقيقتها،

وفرطوا في حقوقها،

وتهاونوا بشأنها.

وذلك لأن المقصود ليس مجرد وجود الصلاة في حياة الإنسان،

وإنما أن تكون الصلاة قائمة كما أمر الله، محافظة على أوقاتها، مؤداة بخشوعها وآدابها وشروطها.

وقال سبحانه: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩﴾ [سورة مريم:٥٩].

فجمع الله بين إضاعة الصلاة واتباع الشهوات؛

لأن الصلاة هي الحصن الذي يحفظ النفس،

فإذا انهار الحصن تسلطت عليها الأهواء والشهوات.

ومن تأمل موضوع هذا الكتاب وجد أن الصلاة من أعظم ما يهيئ النفس ليوم لقاء الله.

فإن الذي يعتاد الوقوف بين يدي الله خمس مرات كل يوم، ويعتاد محاسبة نفسه، ومناجاة ربه، واستحضار الآخرة في صلاته، يكون أقرب إلى الاستعداد لذلك الموقف العظيم من غيره.

أما من عاش معرضًا عن الصلاة، بعيدًا عن بيوت الله، قليل الصلة بربه، فإن خوفه يوم القيامة أعظم، وحسرته أشد، لأنه فرط في أعظم أسباب النجاة التي كانت بين يديه.

ولهذا كانت الصلاة بحق ميزان الانضباط الإيماني، وعلامة صدق العبودية، وأحد أعظم المعايير التي يعرف بها العبد مقدار عنايته بإنقاذ نفسه قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح.

خامسًا: الصلاة من أعظم أسباب إنقاذ النفس

فالصلاة تأتي في مقدمة أعظم الوسائل التي تحفظ النفس وتعينها على النجاة.

لأنها ليست مجرد عبادة تضاف إلى بقية الأعمال،

بل هي سياج يومي يحيط بالنفس ويحفظها من أسباب الهلاك.

فهي تطهر القلب من أدران الغفلة.

فكلما تراكمت على القلب هموم الدنيا وشواغلها

جاءت الصلاة لتغسل عنه تلك الغفلة، وترده إلى ربه من جديد.

وهي تذكر العبد بمصيره كل يوم.

ففي كل ركعة يقرأ المؤمن كلام الله، ويقف بين يدي ربه، ويستحضر أنه عبد ضعيف سائر إلى مولاه، فيتجدد في قلبه الشعور بالآخرة والاستعداد للقاء الله.

وهي كذلك تربط العبد بربه على مدار يومه كله.

فلا يطول به البعد.

ولا تستحكم عليه الغفلة.

ولا يسترسل مع شهواته وأهوائه دون أن ترده الصلاة إلى طريقه.

ولهذا كانت الصلوات الخمس رحمة من الله بعباده،

يتكرر بها التذكير، وتتجدد بها التوبة، وتقوى بها الصلة بالله عز وجل.

ومن تأمل حال المحافظين على الصلاة وجد أثرها ظاهرًا في قلوبهم وأخلاقهم وثباتهم، لأنهم يعيشون في دائرة متجددة من الذكر والمراقبة والرجوع إلى الله.

أما من ضيع الصلاة فقد قطع عن نفسه واحدًا من أعظم أسباب الحفظ، وفتح عليها أبواب الغفلة والضعف والبعد عن الله.

ومن هنا يدرك المؤمن أن كل سجدة سجدها لله، وكل ركعة ركعها لله، وكل صلاة حافظ عليها في الدنيا، كانت في الحقيقة إعدادًا لذلك الموقف العظيم.

📖 الخلاصة:

يتبين من هذا الفصل أن الصلاة ليست عبادة جانبية في حياة المسلم، بل هي أعظم أركان الإسلام العملية بعد التوحيد، وعمود الدين، وعلامة صدق الإيمان، وأول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة.

فهي الصلة الدائمة بين العبد وربه، وميزان الانضباط الإيماني، والحصن الذي يحفظ النفس من الغفلة والهوى، وأحد أعظم أسباب الفلاح والنجاة.

ولهذا لم يكن عجيبًا أن يجعلها الله أول ما يُنظر فيه من أعمال العباد، وأن يربط الفلاح بالمحافظة عليها، والخسران بتضييعها.

فمن أقام الصلاة حق الإقامة، وحافظ عليها ظاهرًا وباطنًا، فقد وضع نفسه على طريق النجاة، وسلك سبيل الفلاح.

ومن ضيعها أو تهاون بها، فقد عرض نفسه لخطر عظيم، وفتح على قلبه أبواب الخسران، ولو ظن أن له من الأعمال ما يغنيه.

ولهذا كانت الصلاة بعد التوحيد مباشرةً أعظم ما تنجو به النفس، وأقوى ما يعينها على الثبات حتى تلقى ربها يوم يقول الناس جميعًا: ((نفسي نفسي)).

الأساس الثالث

التوبة باب إنقاذ النفس عند كل سقوط

إذا كان التوحيد هو أصل النجاة، والصلاة عمودها العملي، فإن النفس مع ذلك تبقى معرضة للزلل والخطأ، لأنها تسير في دنيا تموج بالفتن والشهوات والغفلات، ولا يسلم من التقصير إلا من عصمه الله.

ولهذا لم يجعل الله طريق النجاة مقصورًا على من لم يذنب قط، فإن ذلك لا يطيقه البشر، وإنما فتح لعباده بابًا عظيمًا من أبواب الرحمة، يستطيعون من خلاله أن يعودوا إلى طريق النجاة كلما ابتعدوا عنه، وأن ينقذوا أنفسهم كلما أوشكت على الهلاك، ألا وهو باب التوبة.

فالتوبة ليست عملاً زائدًا على حياة المؤمن، بل هي ضرورة ملازمة له ما دام حيًا، لأنها تجدد سيره إلى الله، وتمحو آثار الزلل، وتعيد النفس إلى طريقها كلما انحرفت عنه.

أولًا: سعة رحمة الله

لقد فتح الله سبحانه لعباده باب التوبة فتحًا واسعًا، وجعل الرجوع إليه متاحًا لكل مذنب، مهما عظمت ذنوبه، ومهما كثرت معاصيه، ما دام لم تبلغ الروح الحلقوم، ولم تطلع الشمس من مغربها.

قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر:٥٣].

وهذه الآية من أرجى آيات القرآن، بل هي نداء رحمة يطرق أبواب القلوب المنكسرة، ويخاطب الذين أثقلتهم الذنوب، وأرهقتهم المعاصي، وأشعرهم الشيطان أن لا طريق لهم إلى النجاة.

فجاء هذا النداء الرباني ليقول لهم: إن باب الإنقاذ لم يغلق، وإن طريق الرجوع ما زال مفتوحًا، وإن رحمة الله أوسع من ذنوبكم كلها.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾

فالمعاصي في حقيقتها عدوان على النفس قبل أن تكون مخالفة للأمر،

لأن كل ذنب يجر النفس خطوة نحو الهلاك.

ثم تأمل كيف نسب الله العباد إلى نفسه فقال: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾.

مع أنهم مذنبون مسرفون.

ليعلم العبد أن باب العبودية لا يغلق بسبب الذنب،

وأن الله يدعو عباده إلى الرجوع إليه مهما بلغت خطاياهم.

ومن هنا نفهم أن التوبة ليست مجرد محو للذنوب، بل هي **عملية إنقاذ** حقيقية للنفس.

فكل توبة صادقة هي يد رحمة تمتد إلى النفس قبل أن تسقط في هاوية الهلاك.

وكل رجوع إلى الله هو خطوة جديدة في طريق النجاة.

ولهذا كان من أعظم مكايد الشيطان أن يقنط العبد من رحمة الله، لأن اليأس يقطع طريق التوبة، فإذا انقطع طريق التوبة انقطعت أسباب الإنقاذ.

أما المؤمن فإنه مهما وقع في تقصير أو ذنب، يبقى متعلقًا بباب ربه، حسن الظن برحمته، مسارعًا إلى التوبة، عالمًا أن الله يفرح بتوبة عبده أعظم من فرح الضال إذا وجد راحلته بعد اليأس منها.

ومن تأمل حال الناس يوم القيامة، حين يقول الخلق: ((نفسي نفسي))، أدرك أن من أعظم النعم التي يمن الله بها على عبده أن يوفقه للتوبة قبل ذلك اليوم، لأن ذنبًا محته توبة صادقة في الدنيا أهون بكثير من ذنب يلقى العبد به ربه يوم الحساب.

ثانيًا: التوبة تمحو ما قبلها

ومن أعظم ما يبعث الأمل في قلب المؤمن أن التوبة لا تقتصر على إصلاح المستقبل فحسب، بل تمتد آثارها إلى الماضي نفسه، فتمحو الذنوب وتمسح آثار الخطايا، وكأن صفحة جديدة قد فُتحت للعبد بعد أن كادت صحيفته تثقل بالأوزار.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الفرقان: ٧٠].

فلم يقتصر الفضل الإلهي على محو السيئات،

بل تعداه إلى تبديلها حسنات،

وذلك من أعظم صور الرحمة والكرم.

عن عبد الله بن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ**». رواه ابن ماجه وحسنه الألباني في الترغيب (٣١٤٥)

وروى الترمذي (٢٦٥٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ**». صححه الألباني

فكأن النفس إذا صدقت في توبتها، وعادت إلى ربها نادمة خاضعة منكسرة، أُعيدت إلى صفائها الأول، وغُسلت من آثار المعصية، وبدأت سيرها إلى الله بروح جديدة وقلب جديد.

وهذا من أعظم صور إنقاذ النفس.

فكم من نفسٍ أثقلتها الذنوب، وكادت تهلك تحت أوزارها، ثم أدركتها توبة صادقة فبدلت مسارها كله.

وكم من عبدٍ كان بعيدًا عن الله، فلما صدق في رجوعه أصبح من أوليائه وأهل طاعته.

ومن هنا يدرك المؤمن أن أخطر ما يريده الشيطان منه ليس مجرد الوقوع في الذنب، وإنما أن يحرمه من التوبة بعد الذنب.

أما إذا تاب العبد وأناب، فإن كثيرًا من أسباب الهلاك تمحى قبل أن يلقى بها ربه يوم القيامة.

ثالثًا: التوبة هي العودة من طريق الهلاك إلى طريق النجاة

فحقيقة التوبة أعمق من أن تكون مجرد كلمات ترددها الألسن،

أو دموعًا عابرة تنهمر من العيون.

إنها تحول حقيقي في مسار النفس.

وانعطاف صادق في طريق الحياة.

وانتقال من جهة إلى جهة.

فهي انتقال من المعصية إلى الطاعة.

ومن الغفلة إلى اليقظة.

ومن الإعراض إلى الإقبال.

ومن البعد عن الله إلى القرب منه.

فالعبد حين يعصي ربه يبتعد عنه، وحين يتوب يعود إليه.

وكلما عظمت التوبة كان الرجوع أعظم، والقرب أكمل، والانكسار أصدق.

ومن هنا يظهر الارتباط الوثيق بين التوبة وموضوع هذا الكتاب.

فإن النفس لا تهلك عادةً بسبب ذنب واحد،

وإنما تهلك حين تستمر في طريق الذنب بلا رجوع،

وتتمادى في الغفلة بلا توبة،

وتؤجل الإنابة حتى يفاجئها الموت.

أما التوبة فهي نقطة التحول الكبرى التي تنقل النفس من طريق الهلاك إلى طريق النجاة.

ولهذا كان التائب في الحقيقة منقذًا لنفسه.

فكل توبة صادقة هي خطوة يبتعد بها عن النار، ويقترب بها من الجنة.

وكل رجعة إلى الله هي نجاة جديدة من سبب من أسباب الهلاك.

أما النفس التي تصر على الذنب، وتؤخر التوبة، وتسوّف الرجوع إلى الله، فإنها تعرض نفسها لخطر عظيم، لأنها تسير في طريق قد ينتهي بها إلى أن تقف يوم القيامة مع الخاسرين، فتقول: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الزمر:٥٦].

ولهذا كان العقل كل العقل أن يبادر العبد إلى التوبة ما دام بابها مفتوحًا،

وأن ينقذ نفسه اليوم قبل أن يأتي اليوم الذي يتمنى فيه الرجوع فلا يُمكَّن منه،

ويطلب المهلة فلا تُعطى له، ويقول: رب ارجعون، وقد انتهى زمن الرجوع، وبدأ زمن الجزاء.

رابعًا: التوبة لا تنقطع ما دام الباب مفتوحًا

ومن أعظم ما يدل على سعة رحمة الله بعباده؛

أن باب التوبة لم يجعله سبحانه بابًا ضيقًا يوشك أن يُغلق،

بل جعله بابًا مفتوحًا طوال رحلة العمر،

يدعو إليه عباده صباح مساء،

ويفتح لهم طريق الرجوع إليه مهما تكرر منهم التقصير والزلل.

عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**». رواه مسلم

فدل ذلك على أن باب التوبة لا يُغلق إلا عند انتهاء زمن الاختيار، فإذا بلغت الروح الحلقوم، أو جاءت الآية الكبرى التي ينتهي عندها زمن الإيمان الاختياري، انقطع باب التوبة، وبدأ زمن الجزاء.

أما قبل ذلك، فإن رحمة الله واسعة، وباب الرجوع مفتوح.

ولهذا فإن العبد مهما أثقلته الذنوب،

ومهما طالت غفلته،

ومهما كثرت معاصيه،

لا يجوز له أن ييأس من روح الله،

ولا أن يظن أن طريق النجاة قد أغلق في وجهه.

فما دام القلب ينبض، وما دام النفس يتردد، وما دام الأجل لم ينته، فإن فرصة الإنقاذ لا تزال قائمة.

ومن أعظم مكايد الشيطان:

أن يقنع العاصي بأن ذنوبه قد كثرت،

وأنه لا فائدة من التوبة،

وأن الطريق إلى الله قد بَعُد عليه.

فيقنطه من رحمة الله ليجمع عليه مصيبتين:

- مصيبة الذنب.
- ومصيبة اليأس من المغفرة.

أما المؤمن فإنه يعرف ربه بأسمائه وصفاته،

ويعلم أن رحمة الله أعظم من ذنوبه،

وأن فضل الله أكبر من تقصيره،

فيبقى كلما سقط نهض،

وكلما أذنب استغفر، وكلما ابتعد عاد،

حتى يلقى الله وهو مقبل عليه غير مصرٍّ على معصيته.

ومن هنا كانت التوبة أعظم وسيلة لإنقاذ النفس بعد وقوعها في الخطأ.

فهي الحبل الذي يلقيه الله لعباده ليخرجوا به من مستنقع الذنوب.

وهي السفينة التي تنقلهم من شاطئ الهلاك إلى شاطئ النجاة.

وهي الباب الذي لا يزال مفتوحًا أمام كل من أراد العودة إلى الله.

ولهذا فإن العاقل لا يؤخر التوبة، ولا يسوف الإنابة،

فإن المرء لا يدري متى يفجؤه الأجل، ولا متى يغلق الباب.

وكم من أناس كانوا يؤملون التوبة غدًا، فسبقهم الموت قبل أن يبلغوا غدهم.

ومن وفقه الله إلى توبة صادقة قبل موته فقد نال نعمة عظيمة،

لأنه أنقذ نفسه قبل أن يأتي اليوم الذي يتمنى فيه الرجوع فلا يُمكَّن منه، ويقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ [سورة المؤمنون:٩٩-١٠٠]، فيقال له: قد انتهى زمن العمل، وبدأ زمن الحساب.

خامسًا: خطر التسويف في التوبة

وإذا كان الله سبحانه قد فتح لعباده باب التوبة، ووعد بقبول من رجع إليه وأناب، فإن من أخطر ما يهدد النفس ويمنعها من الانتفاع بهذا الباب العظيم: التسويف.

فكم من إنسان يعرف خطأه،

ويعترف بتقصيره،

ويحدث نفسه بالتوبة،

لكنه يؤجلها يومًا بعد يوم،

وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة.

يقول: سأتوب غدًا.

سأستقيم عندما أتفرغ.

سأترك الذنب بعد فترة.

سأبدأ حياة جديدة قريبًا.

ولا يدري أن الموت لا ينتظر المواعيد التي يضعها الناس لأنفسهم.

ولا يؤخر مجيئه حتى يحقق الإنسان خططه وأمانيه.

ولهذا كان التسويف من أخطر أسلحة الشيطان.

فإن الشيطان قد لا ينجح دائمًا في منع العبد من التوبة، لكنه ينجح كثيرًا في تأخيرها.

وشتان بين من يقول له الشيطان: لا تتب،

ومن يقول له: تب... ولكن ليس الآن.

فالأول قد يستيقظ ويراجع نفسه.

أما الثاني فيبقى أسير الأماني حتى يفاجئه الأجل.

ولهذا قال الحسن البصري: "إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك" .

والكثير من الناس لا يهلكون لأنهم لا يعرفون الحق، بل لأنهم يؤخرون العمل به.

ولست بمدرك ما فات مني بـ "سوف" ولا بـ "ليت" ولا "لو اني"

والعجيب أن الإنسان إذا تعلق الأمر بدنياه بادر ولم يؤخر.

فإذا خاف خسارة تجارة أسرع إلى إنقاذها.

وإذا خاف ضياع ماله سارع إلى حفظه.

وإذا خاف مرضًا في جسده بادر إلى علاجه.

أما أمر النفس والآخرة، فيؤجله إلى مستقبل لا يملك الوصول إليه.

- **ومن تأمل أحوال الناس:**

وجد أن أكثر أهل المعاصي لم يدخلوا فيها وهم ينوون الثبات عليها إلى الموت،

وإنما كانوا يؤملون التوبة بعد حين،

ثم امتد بهم الأمل،

وطال بهم الطريق،

حتى أدركهم الموت وهم على ما كانوا عليه.

ولهذا كان السلف يخافون من طول الأمل أكثر من خوفهم من كثير من الذنوب؛

لأن طول الأمل يورث التسويف،

والتسويف يؤخر التوبة،

وتأخير التوبة قد يحرم العبد من التوبة كلها.

ومن أعظم ما يعين على المبادرة بالتوبة أن يستحضر العبد أنه لا يملك ضمان ساعة واحدة من عمره.

فكم من صحيح مات من غير مرض.

وكم من مؤمل للغد لم يدركه.

وكم من إنسان خرج من بيته يخطط لأيام طويلة، ثم عاد إلى ربه قبل غروب الشمس.

ولهذا فإن العاقل إذا سمع نداء التوبة لم يؤخره.

وإذا شعر بتقصير بادر إلى إصلاحه.

وإذا وقع في ذنب أسرع إلى محوه بالاستغفار والإنابة.

لأنه يعلم أن الفرصة الحقيقية هي اللحظة التي يعيشها الآن،

أما الغد فليس له عليه عهد ولا ضمان.

ومن أراد إنقاذ نفسه حقًا، فلا ينتظر موسمًا خاصًا،

ولا ظرفًا معينًا، ولا مرحلة أخرى من عمره،

بل يبدأ من ساعته التي هو فيها؛ لأن التوبة المؤجلة قد لا تأتي،

أما التوبة الحاضرة فهي طريق النجاة الذي فتحه الله لعباده؛

قبل أن يأتي اليوم الذي يتمنى فيه المفرطون الرجوع فلا يجدون إليه سبيلاً.

📖 **الخلاصة:**

يتبين من هذا الفصل أن التوبة من أعظم أبواب إنقاذ النفس،

بل هي طوق النجاة الذي جعله الله لكل عبد زلت قدمه أو أثقلته ذنوبه.

فهي باب رحمة مفتوح، لا يغلق في وجه التائبين، وتمحو ما قبلها من الخطايا، وتنقل النفس من طريق الهلاك إلى طريق النجاة، وتعيدها إلى ربها بعد أن أبعدتها المعصية عنه.

كما يتبين أن أخطر ما يحرم العبد من هذا الخير العظيم هو التسويف وطول الأمل، فإن كثيرًا من الناس لا يمنعهم من التوبة جهل ولا إنكار، وإنما يؤخرونها حتى يفجأهم الموت.

ولهذا فإن النجاة الحقيقية ليست في مجرد معرفة طريق التوبة، بل في المبادرة إليها قبل فوات الأوان.

فمن بادر بالتوبة نجا.

ومن صدق في الإنابة غفر الله له.

ومن لازم التوبة حتى لقي ربه لقيه بقلب أنقى، ونفس أزكى، وصحيفة أخف من الأوزار.

وهكذا تكون التوبة أحد أعظم أسباب النجاة يوم يقول الناس جميعًا: ((نفسي نفسي))، فيجد التائب بين يدي الله رحمةً سبقت ذنبه، ومغفرةً محت أثر خطيئته، وفضلاً أدخله في زمرة الناجين.

الأساس الرابع:

محاسبة النفس ومجاهدتها

فإنه إذا كان التوحيد أصل النجاة، والصلاة عمودها، والتوبة بابها المفتوح، فإن هذه المعاني العظيمة لا تستقيم في حياة العبد إلا بأصلٍ رابعٍ ملازم لها، وهو: محاسبة النفس ومجاهدتها.

إذ لا يمكن لنفسٍ تُترك هملاً أن تسير في طريق النجاة دون توجيه ومراقبة.

أولًا: الأمر الإلهي بمحاسبة النفس

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الحشر:١٨].

وهذه الآية من أعظم الآيات الجامعة في باب تزكية النفس ومحاسبتها،

بل هي توجيه رباني للمؤمن في طريق سيره إلى الله.

فقد بدأ سبحانه وتعالى الآية بالأمر بالتقوى، ثم أتبع ذلك بالأمر بالنظر والمراجعة والمحاسبة، لأن التقوى لا تستقيم إلا بمراقبة النفس، ولا تدوم إلا بمحاسبتها.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ﴾.

فلم يقل: ولينظر الناس.

ولم يقل: ولينظر بعضكم بعضًا.

بل وجَّه الخطاب إلى كل نفس على حدة.

لأن القضية في النهاية قضية فردية.

وكل إنسان مسؤول عن نفسه.

وسيأتي يوم يقف فيه وحده بين يدي الله، ويحاسب وحده على ما قدم.

وتأمل كذلك قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾.

فسَمَّى الله يوم القيامة غدًا.

إشارة إلى قربه، وأنه ليس أمرًا بعيدًا كما يتوهم الغافلون.

فكل آتٍ قريب.

وكل مستقبل منتظر.

وكل حيٍّ سائر إلى ذلك الغد الذي لا بد من لقائه.

ومن هنا كان المؤمن العاقل يعيش مع هذه الآية كل يوم.

- **يسأل نفسه:**

ماذا قدمت لصلاتي؟

وماذا قدمت لصحيفتي؟

وماذا قدمت لقبري؟

وماذا قدمت للوقوف بين يدي ربي؟

وماذا أعددت ليوم يقول فيه الخلائق: ((نفسي نفسي))؟

فالحساب اليسير يوم القيامة يبدأ من المحاسبة الصادقة في الدنيا.

أما الغافل فإنه يمضي مع أيامه ولياليه دون مراجعة ولا تفتيش،

حتى تتراكم الذنوب،

وتكثر الغفلات، وتثقل الصحائف،

ثم يفاجأ يوم القيامة بما لم يكن يحتسب.

ومن أعظم ثمار محاسبة النفس أنها تكشف للعبد عيوبه قبل أن تكشفها له صحائفه.

وتريه تقصيره قبل أن يراه يوم العرض الأكبر.

وتدفعه إلى التوبة قبل أن يغلق بابها.

وتعينه على إصلاح عمله قبل أن يندم على فساده.

ولهذا كانت محاسبة النفس من أعظم وسائل إنقاذها، لأنها تجعل العبد يعيش يقظًا مع نفسه، مراقبًا لأعماله، متفقدًا لأحواله، مستعدًا للقاء ربه.

فكل يوم يمر على المؤمن بلا محاسبة صادقة هو يوم ضاعت فيه فرصة من فرص الإصلاح.

أما من اعتاد أن يقف مع نفسه وقفة صدق، فإنه بإذن الله يسير في طريق النجاة خطوة بعد خطوة، حتى يلقى ربه وقد عرف نفسه في الدنيا، فأصلحها قبل أن يقف بها للحساب في الآخرة.

ثانيًا: محاسبة النفس منهج السلف

ولم تكن محاسبة النفس مجرد توجيه نظري في حياة السلف الصالح،

بل كانت منهجًا عمليًا يعيشونه في يومهم وليلتهم، ويعدونها من أعظم أسباب الثبات والاستقامة.

فقد كانوا يدركون أن النفس بطبعها تميل إلى الغفلة، وأن القلب يتقلب، وأن الشيطان لا يفتر عن الإغواء، ولذلك لم يتركوا أنفسهم تسير بلا مراقبة ولا مراجعة.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا" .

وكتب ﷺ إلى بعض عماله: "حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته، وشغله أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة" .

وهذه الكلمات من عمر ﷺ تلخص طريق النجاة كله.

فإن الحساب يوم القيامة حق لا مفر منه.

والصحائف ستنشر.

والأعمال ستعرض.

والعبد سيقف بين يدي ربه ليسأله عن عمره وعمله.

فالعاقل من بدأ هذا الحساب قبل أن يُدعى إليه.

ومن راجع نفسه قبل أن تُراجع صحيفته.

ومن وقف مع عيوبه قبل أن تُكشف له يوم العرض الأكبر.

وكان الحسن البصري يقول: لا يزال المؤمن بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته.

لأن المؤمن الصادق لا يعيش غافلاً عن نفسه، بل يراقبها مراقبة الطبيب لمريضه، ويتفقد أحوالها كما يتفقد التاجر رأس ماله.

فإن وجد خيرًا حمد الله وسأله الثبات.

وإن وجد تقصيرًا بادر إلى إصلاحه.

وإن وجد ذنبًا أسرع إلى التوبة منه.

قال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه.

ولهذا كانت محاسبة النفس عند السلف تشمل الدين كله.

فكان أحدهم يحاسب نفسه على الفرائض قبل النوافل.

وعلى الإخلاص قبل كثرة العمل.

وعلى خواطر قلبه كما يحاسبها على أعمال جوارحه.

وكانوا يخشون أن تمر عليهم الأيام دون أن يزدادوا قربًا من الله.

فإذا وجد أحدهم من نفسه فتورًا أو غفلة عاتبها وألزمها طريق الاستقامة.

ومن تأمل هذا المنهج علم أن النجاة لا تأتي فجأة عند الموت،

ولا تبدأ عند حضور الملائكة، ولا عند الوقوف للحساب.

بل تبدأ من تلك الوقفات الصادقة التي يجلس فيها العبد مع نفسه في الدنيا، فيسألها:

ماذا ربحت اليوم لآخرتي؟

وماذا خسرت؟

وماذا قدمت للقاء الله؟

وماذا أعددت ليوم يقول فيه الخلائق: ((نفسي نفسي))؟

ومن هنا كانت محاسبة النفس من أعظم وسائل إنقاذها؛ لأنها تمنع تراكم الغفلة، وتكشف التقصير مبكرًا، وتدفع صاحبها إلى التوبة والإصلاح قبل أن يفاجئه الأجل.

فالنجاة في حقيقتها ليست خطوة واحدة، وإنما هي ثمرة مراجعات متتابعة، ومراقبة مستمرة، ومحاسبة صادقة، حتى يلقى العبد ربه وقد عوَّد نفسه على الاستقامة، وهيأها لذلك اليوم العظيم.

ثالثًا: مجاهدة النفس طريق التزكية

فإنه إذا كانت محاسبة النفس هي معرفة مواضع الخلل والتقصير،

فإن مجاهدة النفس هي الخطوة التي تلي ذلك؛

إذ لا يكفي أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ما لم يسعَ إلى إصلاحها،

ولا يكفي أن يدرك مواطن الخطر ما لم يجاهد نفسه على الابتعاد عنها.

ولهذا لم يكن المقصود من المحاسبة مجرد التأمل والنظر،

بل المقصود أن تثمر عملاً وتغييرًا وإصلاحًا.

فإذا رأى العبد من نفسه تقصيرًا في الصلاة جاهدها على المحافظة عليها.

وإذا رأى منها ميلاً إلى المعصية جاهدها على تركها.

وإذا رأى فيها فتورًا عن الطاعة حملها على ما ينفعها ولو كرهت.

فإن النفوس بطبعها تميل إلى الراحة، وتأنس بالدعة، وتفر من التكاليف، ولذلك كانت المجاهدة ضرورة لا غنى عنها لكل من أراد النجاة.

وقد دل على هذا الأصل العظيم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة العنكبوت:٦٩].

فجعل الله الهداية ثمرة للمجاهدة.

وجعل التوفيق ثمرة للصبر.

وجعل المعية الخاصة لأهل الإحسان الذين جاهدوا أنفسهم في طاعة ربهم.

وفي هذا إشارة عظيمة إلى أن الهداية ليست مجرد أمنية تُتمنى،

ولا دعوى تُقال باللسان،

وإنما هي ثمرة جهاد طويل مع النفس والهوى والشيطان.

ولهذا كان السلف يعدون جهاد النفس من أعظم أنواع الجهاد؛

لأن الإنسان قد ينتصر على غيره مرة، لكنه يحتاج أن ينتصر على نفسه كل يوم.

ينتصر عليها عند الغضب.

وينتصر عليها عند الشهوة.

وينتصر عليها عند الكسل.

وينتصر عليها عند الفتور.

وينتصر عليها حين تدعوه إلى المعصية أو تثبطه عن الطاعة.

ومن تأمل أوامر الشرع كلها وجدها قائمة على هذا المعنى.

فالصلاة تحتاج إلى مجاهدة.

والصيام يحتاج إلى مجاهدة.

وغض البصر يحتاج إلى مجاهدة.

وبر الوالدين يحتاج إلى مجاهدة.

والصدق والإخلاص والصبر والحلم كلها تحتاج إلى مجاهدة.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

فتأمل كيف علق الله دخول الجنة على أمرين:

- خوف مقامه سبحانه.
- ونهي النفس عن هواها.

لأن النفس إذا تُركت لهواها قادت صاحبها إلى الهلاك، وإذا قُودت إلى طاعة الله قادته إلى النجاة.

ومن أعظم ما يعين على مجاهدة النفس أن يتذكر العبد دائمًا الغاية التي يسير إليها.

فإن الذي يستحضر موقف القيامة، ويتذكر يوم ((نفسي نفسي))، ويعلم أنه سيقف وحده بين يدي الله، يهون عليه أن يجاهد نفسه اليوم؛ لأنه يعلم أن مشقة المجاهدة ساعات محدودة، أما ثمرتها فنعيم لا ينقطع.

وهكذا تكون مجاهدة النفس من أعظم وسائل تزكيتها وإنقاذها؛

فإن النفس لا تزكو بالأماني،

ولا ترتقي بالرغبات المجردة،

وإنما تزكو بالمجاهدة والصبر والمثابرة.

ومن لازم هذا الطريق، وصابر نفسه على طاعة الله، وسعى في إصلاحها يومًا بعد يوم، هداه الله سبل النجاة، حتى يلقاه بقلب سليم ونفس مطمئنة، قد انتصرت على هواها، وربحت أعظم قضية في حياتها: قضية نجاتها بين يدي ربها يوم القيامة.

رابعًا: النفس عدوٌّ داخلي يحتاج إلى ضبط

ومن الحقائق العظيمة التي ينبغي أن يدركها كل من أراد النجاة:

أن أخطر ما يواجهه في طريقه إلى الله ليس عدوًا خارجيًا فحسب،

بل عدوًّا ملازمًا له في كل لحظة، يسكن بين جنبيه، ويحمله معه حيثما ذهب، وهو نفسه التي بين جنبيه.

فكثير من الناس يحذرون من أعدائهم في الخارج، ويتأهبون لدفع كيدهم، لكنهم يغفلون عن عدوٍّ أقرب إليهم من كل عدو، وأشد خطرًا من كثير من الخصوم، لأنه يعرف مواطن الضعف، ويدرك أبواب الشهوة، ويتسلل إلى الإنسان من داخله.

ولهذا كانت النفس إذا تُركت على طبيعتها دعت صاحبها إلى الراحة، وألفت الدعة، وأحبت الشهوة العاجلة، ونفرت من التكاليف التي تحتاج إلى صبر ومجاهدة.

فهي تحب النوم إذا حان وقت القيام.

وتحب الراحة إذا جاء وقت العمل.

وتحب الشهوة إذا دعت المعصية.

وتحب العاجلة ولو كان وراءها ضرر طويل.

ولهذا حكى الله تعالى عن امرأة العزيز قولها: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة يوسف:٥٣].

فهذا وصف لطبيعة النفس إذا لم تُهذَّب بالإيمان، ولم تُضبط بالتقوى، ولم تُربَّ على الطاعة.

ولهذا لم يكن ترك النفس وشأنها طريقًا إلى النجاة أبدًا، بل كان طريقًا إلى التدرج في الهلاك.

فإن النفس لا تنتقل غالبًا من الاستقامة إلى الانحراف الكامل دفعة واحدة.

وإنما تبدأ بخطوة صغيرة من التساهل.

ثم تتبعها غفلة.

ثم يعقبها تقصير.

ثم يألف القلب الذنب.

ثم يضعف إنكاره.

حتى يجد الإنسان نفسه بعيدًا عن الطريق الذي كان يسير فيه.

ولهذا كان الخوف من النفس أكثر من الخوف من كثير من الأعداء.

لأن العدو الخارجي لا يملك أن يضرك إلا بإذن الله،

أما النفس إذا استرسلت مع هواها فقد تجر صاحبها إلى ما يهلكه في دنياه وآخرته.

ومن تأمل نصوص الشرع وجد أنها كلها تدعو إلى ضبط النفس لا إلى إطلاقها.

وتدعو إلى قيادتها لا إلى الانقياد لها.

وتدعو إلى تهذيب رغباتها لا إلى الاستسلام لكل ما تشتهيه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص:٢٦].

لأن الإنسان إذا جعل هواه قائدًا له صار أسيرًا لشهواته، يتقلب معها حيث تقلبت، ويبتعد عن طريق النجاة شيئًا فشيئًا وهو لا يشعر.

ومن هنا كانت المجاهدة ضرورة لا خيارًا.

فليست نافلة لأهل الكمال فقط، بل هي حاجة كل مسلم يريد أن يحفظ نفسه من الانحراف.

خامسًا: أثر المحاسبة في النجاة يوم القيامة

وإذا كانت محاسبة النفس ومجاهدتها من أعظم أعمال المؤمن في الدنيا،

فإن أعظم ثمارها تظهر يوم القيامة، يوم يقف العباد بين يدي رب العالمين للحساب والجزاء.

فإن الذي اعتاد أن يراجع نفسه في الدنيا، وأن يفتش في أعماله، وأن يعاتبها عند التقصير، ويقوِّمها عند الانحراف، يأتي يوم القيامة وقد خفف عن نفسه كثيرًا من أعباء الحساب.

فإن من تولى محاسبة نفسه في الدنيا كان أهون عليه حساب الآخرة.

أما من عاش عمره غافلاً عن نفسه، لا يراجع عملاً، ولا يتفقد قلبًا، ولا يراقب سلوكًا، فإنه يفاجأ يوم القيامة بكمٍّ هائل من التفريط لم يكن يلتفت إليه.

فالمحاسبة هي إعداد حقيقي ليوم العرض الأكبر.

يوم تُفتح الصحائف.

وتُنشر الأعمال.

وتُكشف السرائر.

ويُسأل الإنسان عن عمره وشبابه وعلمه وماله وعمله.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [سورة الطارق:٩].

وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [سورة الكهف:٤٩].

فالفرق بين أهل الغفلة وأهل المحاسبة أن أهل المحاسبة كانوا يراجعون أنفسهم قبل أن يقرؤوا هذا الكتاب.

وكانوا يتداركون أخطاءهم بالتوبة قبل أن يروها مكتوبة في صحائفهم.

وكانوا يصلحون تقصيرهم قبل أن يقفوا به بين يدي ربهم.

ومن هنا كانت المحاسبة نوعًا من الرحمة بالنفس.

فهي تنبهها قبل الغفلة.

وتوقظها قبل السقوط.

وتردها إلى الطريق قبل أن تبتعد عنه.

ولهذا كان السلف يعدون نهاية كل يوم فرصة لمراجعة النفس،

فينظر أحدهم فيما كسب، وفيما فرط، وفيما قربه إلى الله، وفيما أبعده عنه.

لأنه يعلم أن اليوم الذي ينقضي من عمره لن يعود أبدًا.

وأن كل يوم يمر يقربه من ذلك الموقف الذي يقول فيه الخلق جميعًا: ((نفسي نفسي)).

فإذا جاء ذلك اليوم وجد المؤمن ثمرة محاسبته ومجاهدته وصبره.

ووجد أن الساعات التي قضاها في إصلاح نفسه لم تكن ضائعة، بل كانت من أعظم أسباب نجاته.

أما الغافل الذي ترك نفسه بلا مراقبة ولا توجيه، فإنه يندم حين لا ينفع الندم، ويتمنى العودة حين لا سبيل إلى الرجوع.

ولهذا كانت المحاسبة في الدنيا من أعظم صور الاستعداد للآخرة، ومن أصدق علامات العقل والإيمان، لأنها تجعل العبد يعيش دائمًا بعينٍ تنظر إلى يوم الحساب، وقلبٍ يستعد للقاء رب الأرباب.

📖 الخلاصة:

يتبين من هذا الفصل أن محاسبة النفس ومجاهدتها من أعظم أسباب النجاة، وأنهما الطريق العملي الذي يحفظ النفس من الانحراف، ويعينها على الثبات، ويقودها إلى التزكية والاستقامة.

فمحاسبة النفس تكشف العيوب قبل استفحالها.

ومجاهدة النفس تعالج التقصير قبل أن يتحول إلى هلاك.

وضبط النفس يمنعها من الانقياد لأهوائها وشهواتها.

والاستمرار على ذلك كله يهيئ العبد ليوم الحساب، ويخفف عنه أعباء الوقوف بين يدي الله.

فمن لازم محاسبة نفسه نجا بإذن الله.

ومن جاهدها على الطاعة ارتقى في مدارج الكمال.

ومن راقبها حتى آخر عمره لقي الله بقلب أقرب إلى السلامة، ونفس أقرب إلى الطمأنينة.

وهكذا يكون هذا الأساس الرابع حلقةً عظيمةً في مشروع إنقاذ النفس؛ لأن النفس لا تصل إلى النجاة بالتمني، وإنما تصل إليها بالمراقبة والمحاسبة والمجاهدة حتى تلقى ربها وهي على طريق الاستقامة.

الأساس الخامس:

الدعاء وسؤال الثبات... زاد النفس في طريق النجاة

بعد أن تبيّن في الفصول السابقة أن طريق النجاة يقوم على التوحيد والصلاة والتوبة ومحاسبة النفس ومجاهدتها، يبقى أصلٌ جامعٌ لا يستغني عنه العبد في كل أحواله، بل هو روح هذه الأعمال كلها:

وهو الافتقار إلى الله بالدعاء وسؤاله الثبات؛ إذ لا يثبت القلب على طريق النجاة إلا بتثبيت الله له.

أولًا: القلوب بيد الله وحده

فمن أعظم الحقائق التي يجب أن ترسخ في قلب المؤمن، وتستقر في أعماق يقينه، أن الهداية والثبات ليست بيد العبد، ولا هي ثمرة قوته أو ذكائه أو كثرة أعماله فحسب، وإنما هي بيد الله وحده سبحانه وتعالى.

فالقلوب بين يديه سبحانه يقلبها كيف يشاء، يثبتها إن شاء، ويزيغها إن شاء، ويهديها إن أراد، ويتركها إن خُذلت.

ولهذا كان النبي ﷺ، وهو أكمل الخلق إيمانًا، وأعظمهم ثباتًا، وأكثرهم عبادةً وصدقًا، يكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». رواه الترمذي عن أنس وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٩١).

وهذا الدعاء الجليل ليس مجرد لفظٍ يُقال،

بل هو ترجمانٌ لحقيقة العبودية،

وإعلانٌ صادقٌ عن فقر العبد إلى ربه في كل لحظة.

فإذا كان النبي ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لا يستغني عن سؤال الثبات، فكيف بغيره من البشر الذين تحيط بهم الفتن من كل جانب، وتتنازعهم الشهوات، وتضعف قلوبهم أمام أدنى المؤثرات؟

إن هذا الدعاء يربي في قلب المؤمن معنيين عظيمين:

أولهما: أن القلب ليس ملكًا للعبد، وإنما هو ملكٌ لله يصرفه كيف يشاء.

وثانيهما: أن الصلاح والثبات ليسا حالةً مستقرة يطمئن إليها الإنسان، بل هما نعمة تحتاج إلى دوام السؤال والافتقار.

ومن هنا يفهم المؤمن أن سلامة قلبه ليست أمرًا يُنال لمرة واحدة،

ثم يستقر عليه إلى الأبد،

بل هي رحمة متجددة،

وعطاء مستمر من الله سبحانه وتعالى،

يحتاج العبد معه إلى ملازمة الدعاء، وكثرة اللجوء، وشدة الافتقار.

فكم من قلب كان بالأمس مستقيمًا، ثم زاغ اليوم.

وكم من إنسان كان على طاعة، ثم انقلب إلى معصية.

وكم من عبد كان قريبًا، ثم أصبح بعيدًا.

ولذلك كان سؤال الثبات من أعظم ما يحفظ به العبد نفسه في طريق النجاة، لأنه يربطه بالله في كل حين، ويجعله دائم الشعور بالحاجة إلى ربه، فلا يغتر بعمل، ولا يأمن فتنة، ولا يركن إلى حوله وقوته.

فمن عرف أن قلبه بيد الله، لم يترك الدعاء أبدًا، ولم يغفل عن سؤال الثبات، لأنه يعلم أن نجاته كلها متوقفة على لحظة تثبيت من الله، لا يملكها هو، ولا يستطيع أن يصنعها لنفسه.

ثانيًا: الحاجة الدائمة إلى الثبات

إن أخطر ما يهدد النفس في طريقها إلى الله ليس مجرد البداية،

بل الاستمرار والثبات على هذا الطريق إلى النهاية.

فكم من نفس أشرقت في أول الطريق بنور الطاعة، ثم خبا ذلك النور شيئًا فشيئًا حتى انطفأ.

وكم من قلب ذاق حلاوة الإيمان في لحظة، ثم عاد بعد ذلك إلى قسوة الغفلة.

وكم من إنسان كان قريبًا من أبواب الخير، ثم تراجع عنها بسبب فتنة عارضة، أو شهوة عاجلة، أو غفلة لحظة.

ولهذا كان الثبات هو الامتحان الحقيقي في السير إلى الله، لا مجرد الانطلاق.

فالعبرة ليست بمن بدأ، وإنما بمن ثبت حتى لقي الله.

ومن هنا تظهر شدة حاجة العبد إلى سؤال الثبات في كل حين،

لا مرة عابرة، ولا في وقت دون وقت،

بل هو دعاء ملازم للقلب واللسان؛

لأن النفس متقلبة بطبعها، تميل مرة وتستقيم مرة، وتضعف حينًا وتشتد حينًا آخر.

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**». رواه مسلم

فإذا كان هذا حال القلوب، كان لزامًا على العبد أن يكثر من سؤال الله الثبات، وأن لا يغتر بحاله في لحظة من اللحظات، ولا يظن أن ما هو عليه من استقامة هو أمر ثابت لا يتغير.

فكم من عبدٍ أُمن من الفتنة فأُخذ بها.

وكم من إنسان ظن أنه بعيد عن الانحراف، فإذا به يقع فيه من حيث لا يحتسب.

وكم من صاحب عبادة انقطع عنها بسبب غفلة لم يحسب لها حسابًا.

ولهذا كان الدعاء بالثبات من أعظم الأدعية التي يحتاجها العبد في كل يوم،

بل في كل صلاة،

بل في كل لحظة،

لأنه يعيش بين عوامل كثيرة تجذبه عن طريق الاستقامة.

فالدنيا بزينتها تجذبه.

والنفس بشهواتها تجذبه.

والشيطان بوساوسه يجذبه.

والغفلة إذا تمكنت منه صرفته.

فلا شيء يعصمه من هذه الجاذبيات المتعددة إلا تثبيت الله له، ودعاؤه الدائم بأن يبقيه على طريق الحق حتى يلقاه.

ومن أدرك هذه الحقيقة لم يأمن لحظة على نفسه، ولم يركن إلى عمله، بل بقي دائم السؤال: يا رب ثبتني، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

وهكذا يصبح الدعاء بالثبات ليس مجرد كلمات تُقال، بل هو حاجة وجودية للنفس في كل مراحل سيرها إلى الله، وشرطًا من شروط نجاتها في يوم "نفسي نفسي" .

ثالثًا: الدعاء سلاح النفس في مواجهة الفتن

الدعاء هو سلاح العبد حين تنقطع الأسباب، وهو الملجأ حين تضيق الطرق، وهو الحبل المتصل بين العبد وربه في كل حال، لا ينقطع ما دامت النفس تتنفس، ولا يُغلق ما دام القلب حيًّا.

ولهذا كان الدعاء من أعظم ما يعصم النفس من الانحراف، ويثبتها في زمن الفتن، ويحفظها من السقوط حين تتكاثر دواعي الغواية وتضعف دوافع الطاعة.

فالنفس في هذه الحياة لا تخلو من الفتن، بل هي محاطة بها من كل جانب: فتنة الشهوات، وفتنة الشبهات، وفتنة الغفلة، وفتنة الدنيا، وفتنة الناس، وكل فتنة منها قادرة أن تجرّ القلب إن غفل عن ربه أو ضعف تعلقه به.

ومن هنا كانت خطورة الاعتماد على النفس وحدها، أو الركون إلى القوة الذاتية، أو الاتكال على مجرد المعرفة دون استعانة.

فكم من إنسان عرف الحق ثم لم يثبت عليه.

وكم من قلب ذاق الإيمان ثم انتكس عنه.

وكم من عبد بدأ طريق الاستقامة ثم قطعته عنه الفتن من حيث لا يحتسب.

ولهذا كان من أعظم أسباب النجاة أن يبقى العبد مرتبطًا بربه في كل حين، لا يغيب عنه في حال رخاء ولا شدة، ولا في قوة ولا ضعف، يسأله الهداية كلما تحرك قلبه، ويستجلب عونه كلما شعر بضعفه، ويفزع إليه كلما أحاطت به الفتن.

فالدعاء في حقيقته ليس مجرد كلمات تُقال، بل هو استعانة مستمرة، واستمداد دائم للقوة من مصدرها الحقيقي، وإقرار بأن النفس لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا إلا بإذن الله.

ومن أعظم ما يحفظ النفس في زمن الفتن أن تبقى حيّة بالدعاء، يقظة بالافتقار، متصلة بالملك الحق سبحانه، لا تركن إلى حولها، ولا تعتمد على قوتها، بل ترى نفسها دائمًا محتاجة إلى من يثبتها ويهديها ويقيها شر الفتن.

وهكذا يصبح الدعاء ليس مجرد عبادة منفصلة، بل هو خط الدفاع الأول عن النفس، وسلاحها في مواجهة كل ما يعترض طريقها إلى الله، وسبب بقائها ثابتة حين تتقلب القلوب وتضطرب النفوس.

رابعًا: الدعاء علامة صدق طلب النجاة

إن من صدق في طلب إنقاذ نفسه لم يكتفِ بالأعمال الظاهرة وحدها، مهما عظمت وكثرت، بل لازم باب الدعاء، وألحّ على الله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن لا يتركه لهواه أو لضعفه أو لغفلته.

روى النسائي في الكبرى عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**». وحسنه الألباني في الترغيب (٦٦١).

فالدعاء في حقيقته ليس مجرد طلب عابر، ولا كلمات تُقال عند الحاجة فقط، بل هو إعلان دائم عن فقر العبد، واعتراف صريح بعجزه، وتبرؤ من حوله وقوته، واستمدادٌ مستمر للعون من الله وحده.

ومن عرف حقيقة نفسه أدرك أنه لا يملك لنفسه هدايةً ولا ثباتًا ولا صلاحًا إلا إذا تولاه الله برحمته، فكان لسانه وقلبه دائم الافتقار إلى ربه، لا ينقطع عنه في حال من الأحوال.

ولهذا كان الدعاء من أعظم علامات صدق السير إلى الله؛ لأن من صدق في طلب النجاة لم يغفل عن سؤالها، ومن أيقن بخطر الهلاك لم يترك باب الاستعانة، ومن علم أنه موقوف بين يدي الله لم يرضَ أن يُسلم إلى نفسه.

فالدعاء يكشف حقيقة القلب: أهو معتمد على نفسه، أم متعلق بربه؟

ويكشف صدق الإرادة: أهي مجرد أمنيات، أم طلبٌ صادق يلازمه اللجوء والافتقار؟

ومن هنا كان العبد كلما ازداد صدقًا في طريق النجاة ازداد تعلقًا بالدعاء، حتى يصبح الدعاء عنده كالنفس الذي يتنفسه، لا ينفك عنه، ولا يستغني عنه.

لأنه يعلم أن النجاة ليست بيده، وأن الثبات ليس بقوته، وأن القلب لا يستقيم إلا بتثبيت الله.

فمن كان كذلك، دلّ حاله على أنه من أهل الرجاء الصادقين، الذين يرجون النجاة حق الرجاء، ويعلمون أن مفاتيحها بيد الله وحده.

خامسًا: الثبات نهاية طريق "نفسي نفسي"

إن كل ما سبق من فصول هذا الكتاب: التوحيد، والصلاة، والتوبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والدعاء، ليست مقصودة لذاتها فحسب، وإنما هي وسائل كبرى، وطرق عملية، ومنازل متتابعة في طريق واحد، غايته النهائية: الثبات على الحق حتى الممات.

فإن حقيقة النجاة ليست في مجرد البداية على الطريق، ولا في الإقبال المؤقت على الطاعة، ولا في لحظات من الاستقامة العارضة، وإنما في أن يختم الله للعبد بخاتمة الصالحين، فيلقى ربه وهو ثابت على الإيمان، مستقيم على الطاعة، بعيد عن موجبات الخسران.

ومن هنا يظهر أن أعظم ما يُطلب للنفس في هذا الباب كله هو الثبات؛ لأنه الميزان الحقيقي الذي تُوزن به الأعمال، وتُعرف به العواقب، وتُحسم به قضية النجاة أو الهلاك.

فمن ثبته الله على الحق فقد نجت نفسه ولو قل عمله،

ومن تُرك لنفسه طرفة عين فقد هلك ولو كثرت أعماله؛

لأن المدار على العاقبة والخاتمة، لا على البدايات والمظاهر.

ولهذا كان الخوف من سوء الخاتمة من أعظم ما كان يخشاه الصالحون، مع كثرة أعمالهم وصلاح أحوالهم؛ لأنهم يعلمون أن القلوب بيد الله، وأن الثبات فضلٌ من الله لا يُنال إلا بسؤال دائم وافتقار متجدد.

ومن هنا كان الدعاء بالثبات هو خاتمة طريق الإنقاذ، وحارس النفس الأخير، والسياج الذي يحفظها من الانحراف بعد الاستقامة، ومن الزيغ بعد الهداية، ومن الانتكاس بعد الإقبال.

فهو ليس دعاءً يُقال عند الضعف فقط، بل هو دعاء حياة، ودعاء مسار، ودعاء ملازم للقلب في كل أحواله، حتى يلقى العبد ربه وهو عليه.

📖 **الخلاصة:**

يتبين من هذا الفصل أن الدعاء وسؤال الثبات هو روح النجاة وزادها الأعظم، وأن النفس لا يمكن أن تستقل بطريقها إلى الله دون عون الله وتثبيته.

فمن لازم الدعاء نجا،

ومن فتر عنه عرَّض نفسه للانحراف،

ومن صدق في سؤاله ربه الثبات حتى الموت كان من أهل الفلاح يوم القيامة.

حين لا ينفع مال ولا نسب ولا عمل إلا ما ثبت في القلب من الإيمان، وأُحكم على الجوارح من الاستقامة.

الخاتمة

ها نحن نصل إلى ختام هذه الرحلة، بعد أن طفنا في هذا الكتاب بين مشاهد الآخرة، ووقفات القرآن، وهدي السنة، وحقائق النفس، وأسباب نجاتها، حتى انتهى بنا إلى حقيقةٍ هي لبُّ هذا الكتاب وروحه، بل هي الحقيقة التي يدور عليها مصير كل إنسان:

أن الإنسان في نهاية المطاف لا يملك إلا نفسه، وأن سعادتها أو شقاءها، ونجاتها أو هلاكها، إنما يكون بما قدمه لها أو عليها.

وقد بدأ هذا الكتاب بمشهدٍ تهتز له القلوب، وتقشعر له الجلود: مشهد الأنبياء والخلق جميعًا وهم يقولون: "نفسي نفسي" ، ثم أخذت آيات القرآن، وأحاديث النبي ﷺ، تكشف للقارئ أن هذه الكلمة ليست موقفًا عابرًا في عرصات القيامة، بل هي خلاصة رحلة الإنسان كلها؛ يوم تنقطع الأسباب، وتسقط المظاهر، وتنكشف الحقائق، ويقف كل عبدٍ بين يدي ربه وحده، لا يحمل معه إلا إيمانه وعمله.

ولقد تبين لنا أن أعظم قضية في حياة الإنسان ليست دنياه التي سرعان ما تزول، ولا ماله الذي سيتركه، ولا جاهه الذي ينقضي، وإنما نفسه التي بين جنبيه:

- إن زكَّاها فقد أفلح.
- وإن دسَّاها فقد خاب.
- وإن حفظها بطاعة الله نجت.
- وإن أهملها وأوردها موارد الهلاك خسرت أعظم خسارة.

وهذا هو الميزان الذي لا يتغير، والحقيقة التي لا تتبدل، مهما اختلفت الأزمنة، أو تغيرت أحوال الناس.

فالدنيا ليست دار مقام، وإنما دار عبور، وليست دار جزاء، وإنما دار عمل، وإنما أعطي الإنسان فيها مهلةً قصيرة ليُعدَّ لنفسه جوابًا لذلك اليوم العظيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقد تبين من خلال صفحات هذا الكتاب أن طريق النجاة واضح المعالم، بيِّن الأركان، قد دلَّ الله عليه عباده، فلم يتركهم في حيرة، بل أقام لهم الصراط المستقيم، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، وأوضح لهم سبيل الفلاح.

فكان أساس ذلك كله:

- توحيدٌ يُصلح أصل العلاقة بالله.
- وصلاةٌ تحفظ الصلة بين العبد وربه.
- وتوبةٌ تمحو آثار الزلل، وتفتح أبواب الأمل.
- ومحاسبةٌ للنفس ومجاهدةٌ لها تحفظها من الانحراف.
- ودعاءٌ دائمٌ يورث الثبات حتى الممات.

وهذه الأصول الخمسة ليست حصرًا لجميع أسباب النجاة، وإنما هي أمهات الأصول التي يقوم عليها بناء الإيمان والاستقامة، وتتفرع عنها سائر أعمال البر والقربات؛ فكل ما شرعه الله من الفرائض والنوافل، وأعمال القلوب، ومكارم الأخلاق، وسائر الطاعات، فهو من أسباب نجاة النفس وفلاحها.

وإنما اقتصرنا في هذا الكتاب على هذه الأصول؛ لأنها الأساس الذي يُبنى عليه ما بعده، فإذا استقام الأساس استقامت الفروع، وإذا اختلَّ لم تُغنِ كثرة الأعمال عن صاحبها، وكان ما سواه قليل الأثر أو عديمه بحسب فساد الأصل.

ولكن لا بد أن نعلم أن المشكلة ليست في خفاء الطريق، فقد بيَّنه الله أتم البيان، وإنما المشكلة في الغفلة عنه، وفي طول الأمل، واتباع الهوى، وتسويف التوبة، والانشغال بكل شيء إلا بالنفس التي سيقف بها العبد بين يدي ربه.

وسيأتي اليوم الذي وعد الله به عباده لا محالة، يوم تُطوى صحائف الدنيا، وتنتهي فرص العمل، ويقف الخلق جميعًا للحساب، فلا نسب ينفع، ولا مال يُفتدى به، ولا جاه يشفع لصاحبه، وإنما: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة المدثر:٣٨].

وهناك تظهر الحقيقة التي طالما كررها القرآن، وبيَّنتها السنة، وهي أن الإنسان لا يملك في ذلك الموقف إلا ما قدَّمه لنفسه في هذه الحياة.

فيا من تقرأ هذه الكلمات، لا تؤجل توبتك، ولا تستصغر طاعتك، ولا تحتقر ذنبك، ولا تغفل عن نفسك، واجعل لك في كل يوم نصيبًا من العمل يقربك إلى الله، حتى تلقاه بقلبٍ سليم، ونفسٍ مطمئنة، وعملٍ صالح، ورجاءٍ صادق في رحمته.

نسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وأن يزكي نفوسنا، فإنه خير من زكاها، وأن يثبتنا على دينه حتى نلقاه، وأن يرزقنا حسن الخاتمة، وأن يزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة برحمته، وأن يجعلنا ممن يقال لهم يوم القيامة: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الحجر:٤٦].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

كان الفراغ من تأليف هذا الكتاب يوم الرابع من شهر الله المحرم، سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

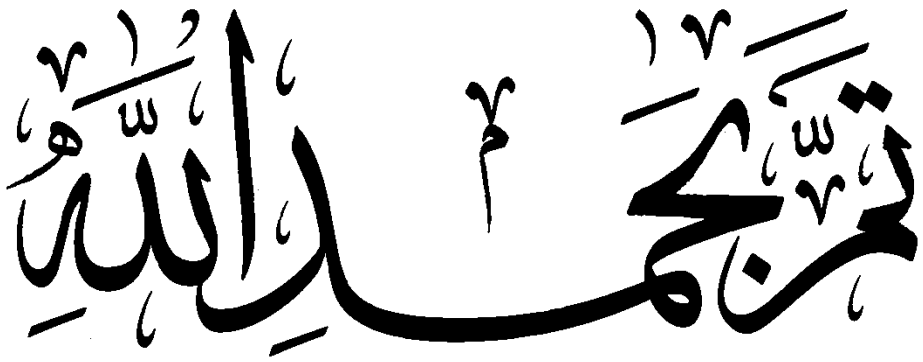

المحتويات

المقدمة ٣
الفصل الأول: ٥
حقيقة النفس ٥
الفصل الثاني ٩
يوم يقول الأنبياء: نفسي نفسي ٩
الفصل الثالث: ١٩
القرآن يرسم مشهد الانشغال بالنفس ١٩
الفصل الرابع: ٣٧
أعظم الخسارة خسارة النفس ٣٧
الفصل الخامس: ٤٨
أعظم الفوز نجاة النفس ٤٨
الفصل السادس: نداءات القرآن والسنة ٥٤
أنقذ نفسك ٥٤
الفصل السابع ٥٩
طريق النجاة... كيف تنقذ نفسك؟ ٥٩
الأساس الأول: ٦٠
التوحيد أصل النجاة وأساسها ٦٠
الأساس الثاني: ٦٩

الصلاة عمود النجاة وأول ما يُسأل عنه العبد..... ٦٩

الأساس الثالث ٧٦

التوبة باب إنقاذ النفس عند كل سقوط..... ٧٦

الأساس الرابع: ٨٥

محاسبة النفس ومجاهدتها ٨٥

الأساس الخامس: ٩٥

الدعاء وسؤال الثبات... زاد النفس في طريق النجاة ٩٥

الخاتمة..... ١٠٢